

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ

جَمْعٌ وَتَرْتِيبٌ

مِنْ خُطَبٍ وَمُحَاضِرَاتِ الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ:

أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَلْمَانَ

حَفِظَهُ اللَّهُ تَعَالَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا
وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا
إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَآنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل

عمران: ١٠٢].

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا
رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ ؕ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

[النساء: ١].

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

• أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَشَرَّ
الْأُمُورِ مُحَدَّثَاتُهَا، وَكُلُّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي
النَّارِ.

• أَمَّا بَعْدُ:

تَزْكِيَةُ النَّفْسِ سَبِيلُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ

فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا أَقْسَمَ سَبْعَةَ أَقْسَامٍ مُتَوَالِيَةٍ عَلَى قَضِيَّةٍ هِيَ قَضِيَّةُ الْعُمَرِ بِالنُّسْبَةِ لِلْإِنْسَانِ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ١ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

وَأَقْسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالْخَلْقِ وَالْخَالِقِ، فَأَقْسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالشَّمْسِ وَضِحَاهَا، وَبِالقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا، وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا، وَبِاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا، وَأَقْسَمَ بِالسَّمَاءِ وَبَانِيهَا، وَالأَرْضِ وَطَاحِيهَا، وَأَقْسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِالنَّفْسِ وَمَا سِوَاهَا، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ ١ ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾، فَهَذَا هُوَ الْمُقْسَمُ عَلَيْهِ، وَهِيَ الْقَضِيَّةُ الأَخْطَرُ فِي حَيَاةِ كُلِّ إِنْسَانٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَيْنَ أَنْ الْفَلَاحَ مَرهُونٌ بِهَا وَأَنَّ الخَيْبَةَ وَالْخُسْرَانَ فِي مُجَانِبَتَيْهَا، وَأَنَّ مَنْ زَكَ نَفْسَهُ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ.

فَأَقْسَمَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هَذِهِ الأَقْسَامَ عَلَى هَذِهِ الْقَضِيَّةِ العُظْمَى فِي حَيَاةِ الْإِنْسَانِ، وَالتِّي عَلَيْهَا مَدَارُ نَجَاحِهِ وَخُسْرَانِهِ، وَعَلَى مَدَارِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ تَكُونُ سَعَادَتُهُ دُنْيَاً وَآخِرَةً.

وَالتَّأَمُّلُ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَزِيدُ الإِيمَانَ، يَزِيدُ تَزْكِيَةَ النَّفْسِ، يَزِيدُ المَرْءَ قُرْبًا مِنَ اللَّهِ وَخُشوعًا لَهُ، وَإِنَابَةً وَإِقْبَالَاً عَلَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

* بَعْضُ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ:

وَمِمَّا تَزْكُو بِهِ النَّفْسُ وَيَزِيدُ بِهِ الْإِيمَانَ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ، وَقَدْ جَعَلَهَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ مَوْصُولَةً وَجَعَلَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ لِهَذِهِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي افْتَرَضَ عَلَيْنَا وَالَّتِي نَدَّبَ إِلَيْهَا نَبِيًّا ^{وَالرَّسُولَ}، جَعَلَ لَهَا مَرْدُودًا فِي تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَفِي تَطْهِيرِهَا وَبُعْدِهَا عَمَّا يُشِينَهَا دُنْيَا وَآخِرَةً.

فَرَضَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصَّلَاةَ، وَبَيَّنَ لَنَا أَنَّهَا تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ؛ لِأَنَّهَا صِلَةٌ بَيْنَ الْعَبْدِ وَرَبِّهِ، فَمَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ فَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ، وَإِسْلَامُ الْمَرْءِ عَلَى قَدْرِ صَلَاتِهِ، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْرِفَ إِسْلَامَهُ، وَأَنْ يَتَيَقَّنَ مِنْ حَقِيقَتِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ إِلَى صَلَاتِهِ، فَعَلَى قَدْرِ صَلَاتِكَ يَكُونُ إِسْلَامُكَ.

وَفَرَضَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصَّدَقَةَ؛ تَطْهِيرًا وَتَنْمِيَةً وَتَزْكِيَةً لِلنَّفْسِ.

وَفَرَضَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الصِّيَامَ؛ لِتَحْصِيلِ التَّقْوَى -وَالتَّقْوَى: فِعْلُ الْمَأْمُورَاتِ وَتَرْكُ الْمَنْهَيَّاتِ وَالْمَحْذُورَاتِ- وَلِيَتَعَلَّمَ الْمَرْءُ كَيْفَ يَكُونُ زَمَامَ قَلْبِهِ وَرُوحِهِ وَنَفْسِهِ بِيَدِهِ حَتَّى لَا تَصْرِفَهُ النَّفْسُ فِي أَهْوَائِهَا، وَحَتَّى لَا تَمْضِيَ بِهِ النَّفْسُ عَلَى شَهَوَاتِهَا، وَإِنَّمَا يَكُونُ مَالِكًا لِنَفْسِهِ.

وَمَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ بِشَيْءٍ إِلَى اللَّهِ بِمِثْلِ كَلَامِهِ، الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَكَلَامُ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَكَلَامِ النَّاسِ كَالْفَرْقِ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ، فَمَنْ قَدَّرَ الْقُرْآنَ قَدْرَهُ، وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَأَشْبَعَ بِهِ قَلْبَهُ وَنَفْسَهُ زَكَّاهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

إِنَّ مِمَّا يُزَكِّي بِهِ الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ أَنْ يَتَّبِعَ عَنِ الْمَعَاصِي، وَأَنْ يَفْعَلَ الْحَسَنَاتِ، وَأَنْ يَجْتَهِدَ فِي جَلْبِ الطَّاعَاتِ، مُخْلِصًا لِرَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ، وَأَنْ يَجْتَنِبَ السَّيِّئَاتِ، فَهَذِهِ كُلُّهَا أُمُورٌ يُزَكِّي بِهَا الْإِنْسَانَ نَفْسَهُ. (*)

* أَعْظَمُ طَرِيقٍ إِلَى تَزْكِيَةِ النَّفُوسِ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ:

وَأَعْظَمُ طَرِيقٍ وَآكِدُهُ إِلَى تَزْكِيَةِ النَّفُوسِ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ، «قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧].

قَالَ أَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ مِنَ السَّلَفِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ: الزَّكَاةُ هَاهُنَا هِيَ التَّوْحِيدُ، شَهَادَةُ أَنْ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَالْإِيمَانُ الَّذِي بِهِ يَزْكُو الْقَلْبُ؛ فَإِنَّهُ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ إِلَهِيَّةِ مَا سِوَى الْحَقِّ مِنَ الْقَلْبِ، وَذَلِكَ طَهَارَتُهُ، وَإِثْبَاتُ إِلَهِيَّةِ سُبْحَانَهُ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ زَكَاةٍ وَنَمَاءٍ»^(١).

فَسَمَّى اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ التَّوْحِيدَ زَكَاةً، كَمَا وَسَمَ سُبْحَانَهُ الشَّرْكَ بِالنَّجَاسَةِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة: ٢٨].

قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢): «التَّوْحِيدُ أَلْطَفُ شَيْءٍ وَأَنْزَهُهُ وَأَنْظَفُهُ وَأَصْفَاهُ، فَأَذْنَى شَيْءٍ يَخْدِشُهُ، وَيُدْنِسُهُ، وَيُؤَثِّرُ فِيهِ، فَهُوَ كَأَبْيَضٍ ثَوْبٍ يَكُونُ، يُؤَثِّرُ فِيهِ أَذْنَى أَثْرٍ، وَكَالْمِرَاةِ الصَّافِيَةِ جِدًّا، أَذْنَى شَيْءٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ «خُطْبَةِ عِيدِ الْفِطْرِ ١٤٣٤هـ: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا» - الْخَوَيْسُ ١ مِنْ

شَوَّالٍ ١٤٣٤هـ / ٨-٨-٢٠١٣م.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١ / ٧٩).

(٢) «الْفَوَائِدُ» (ص ١٩٤).

وَأَمَّا الشِّرْكَ فَهُوَ أَنْجَسُ النَّجَاسَةِ، وَأَخْبَثُهَا وَأَشْنَعُهَا.

والتَّوْحِيدُ زَكَاةٌ، حَيْثُ يُنْمَى ثَوَابُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَيُبَارِكُ فِيهَا، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ إِذَا تَمَكَّنَ مِنْ طَاعَةِ مَا، فَكَانَتْ هَذِهِ الطَّاعَةُ خَالِصَةً لِرُوحِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّ أَجْرَهَا عَظِيمٌ، وَثَوَابُهَا جَزِيلٌ.

وَأَمَّا الشِّرْكَ فَهُوَ مُحِيطٌ لِجَمِيعِ الْقُرْبَاتِ، وَمُوجِبٌ لِلْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ.

وَالشِّرْكَ أَيْضًا خِذْلَانٌ وَحِرْمَانٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ أَي مَذْمُومًا لَا حَامِدَ لَكَ، وَمَخْذُولًا لَا نَاصِرَ لَكَ.

* وَمِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ: مُحَاسَبَتُهَا:

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ^(١): «زَكَاةُ النَّفْسِ وَطَهَارَتُهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَى مُحَاسَبَتِهَا، فَلَا تَزْكُو وَلَا تَطْهَرُ وَلَا تَصْلِحُ الْبِتَّةَ إِلَّا بِمُحَاسَبَتِهَا، قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«إِنَّ الْمُؤْمِنَ - وَاللَّهِ - لَا تَرَاهُ إِلَّا قَائِمًا عَلَى نَفْسِهِ؛ مَا أَرَدْتَ بِكَلِمَةٍ كَذَا؟ وَمَا أَرَدْتَ بِأَكْلَةٍ كَذَا؟ مَا أَرَدْتَ بِمَدْخَلٍ كَذَا وَمَخْرَجٍ كَذَا؟ مَا أَرَدْتَ بِهِذَا؟ مَا لِي وَلِهَذَا؟ وَاللَّهِ لَا أَعُودُ إِلَيَّ هَذَا، وَنَحْوِ هَذَا مِنْ كَلَامٍ^(٢).

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٢/ ٤٧٧ - ٤٧٨).

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

فَمُحَاسِبَةُ النَّفْسِ يَطَّلِعُ عَلَى عُيُوبِهَا وَنَقَائِصِهَا، فَيُمْكِنُهُ السَّعْيُ فِي إِصْلَاحِهَا. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ حُطْبَةٍ: «تَزْكِيَةُ النَّفْسِ وَتَخْرِيرُ الْقُدْسِ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ

١٤٣٩هـ / ١٥-١٢-٢٠١٧م.

وَقَفَّةٌ مَعَ النَّفْسِ فِي عَمْرَةِ الْفِتَنِ الْحَالَّةِ

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مِمَّا قَدْ عَمَّ شَرُّهُ، وَتَطَايَرَ حَتَّى عَمَرَ شَرُّهُ، فَعَمَّ الْأَفَاقَ، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا؛ مَا دَخَلَتْ بِهِ الْفِتْنُ الْحَالَّةُ عَلَى قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ، فَزَادَتْ الْقُلُوبَ قَسَاوَةً فَوْقَ قَسَاوَتِهَا، وَتَحَجَّرًا فَوْقَ تَحَجُّرِهَا، وَانْهَارَتْ الْأَخْلَاقَ إِلَّا لِمَمَّا، وَصَارَ النَّاسُ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ.

فَكَمَ مِنْ مُنْكَرٍ مَا كَانَ يَأْلَفُهُ، وَكَمَ مِنْ مُعْتَادٍ مَا كَانَ يُنْكَرُهُ، وَلَا يَتَلَبَّثُ عَلَى رَأْسِ طَرِيقِهِ؛ لَيْسَأَلْ نَفْسَهُ إِلَى أَيْنَ أَسِيرٌ؟ وَإِلَى أَيْنَ الْمَصِيرُ؟ وَهَذَا شَأْنُ الْفِتَنِ إِذَا حَلَّتْ، فَعَمَّتْ، فَطَمَّتْ، ثُمَّ اسْتَقَرَّتْ فِي الْقُلُوبِ فَفَقَرَتْ.

فَإِنَّهَا لَا تَدْعُ مَنْفَذًا إِلَّا نَفَذَتْ مِنْهُ، وَتَغْلَغَلَتْ فِيهِ، حَتَّى تَسْتَوْلِيَ عَلَى الْقَلْبِ بِشِعَاغِهِ، وَحَتَّى يَكُونَ الْقَلْبُ كَمَا قَالَ الرَّسُولُ ﷺ فِي غُلَافٍ مِنَ النَّكَدِ مُقِيمٍ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا ارْتَكَبَ الذَّنْبَ نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَمَا تَزَالُ تِلْكَ النُّكْتُ تَزِيدُ، «حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ أَسْوَدَ مُرْبَادًا، كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكَرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أَشْرَبَ مِنْ هَوَاهُ» (١).

(١) جُزْءٌ مِنْ حَدِيثِ: حُدَيْفَةَ رضي الله عنه فِي الْفِتَنِ، الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْمٌ ١٤٤).

وَمِنْ عُقُوبَةِ السَّيِّئَةِ؛ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَمِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ؛ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا.

فَمَا أَحْوَجَ الْمُسْلِمَ فِي هَذَا الْخِصْمِ الْهَائِلِ مِنَ الْفِتَنِ - وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ
أَمْوَاهُ، وَعَلَتْ عَلَيْهِ جِبَالُ مَائِهِ - أَنْ يَتَوَقَّفَ، وَإِنَّهُ لَفِي ظُلْمَاءٍ مُدْلِهِمَّةٍ، إِذَا أَخْرَجَ
يَدَهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَمْ يَكْذِبْ رَأْيَاهَا!!

مَا أَحْوَجَهُ إِلَى أَنْ يَتَلَبَّثَ قَلِيلًا، وَأَنْ يَنْظُرَ فِي أَطْوَاءِ نَفْسِهِ، وَأَنْ يَتَأَمَّلَ فِي
ذَاتِ أَمْرِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مُبْصِرًا أَيْنَ طَرِيقُهُ، وَهَلِ اخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ الرِّيَّاحُ الْهُوجُ،
فَعَمَّتْ عَلَيْهِ سَبِيلُهُ، وَطَمَّتْ عَلَيْهِ طَرِيقُهُ، فَصَارَ عَلَى غَيْرِ سَبِيلٍ، سَائِرًا عَلَى غَيْرِ
طَرِيقٍ، أَمْ أَنَّهُ مَا زَالَ مُهْتَدِيًا بِهَدْيِ رَبِّهِ، مُتَمَسِّكًا بِسُنَّةِ نَبِيِّهِ (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) (*).



(*): مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَانْتَبَهُ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣ هـ / ١٠-٥ -

سَعَادَةُ الْمُسْلِمِ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ

إِنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ، يُؤَدِّي إِلَى هَذَا الْهَرَجِ الَّذِي تَرَاهُ فِي الْحَيَاةِ، وَإِلَى هَذِهِ الْفَوَاضِي الَّتِي عَمَّتِ السَّاحَتَيْنِ؛ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعِبَادِيَّةِ، وَكُلُّ ذَلِكَ بِسَبَبِ التَّفَاوُتِ بَيْنَ الْقُوَّتَيْنِ.

وَسَعَادَةُ الْمَرْءِ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَهُمَا، أَنْ يُوَازِنَ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ؛ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، فَمَنْ زَادَتْ قُوَّتُهُ الْعِلْمِيَّةُ عَلَى قُوَّتِهِ الْعَمَلِيَّةِ أَصَابَهُ نِفَاقٌ وَرِيَاءٌ.

وَمَنْ زَادَتْ قُوَّتُهُ الْعَمَلِيَّةُ عَلَى قُوَّتِهِ الْعِلْمِيَّةِ سَارَ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، وَوَقَعَ فِي الْإِبْتِدَاعِ؛ لِأَنَّهُ يَعْبُدُ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَمَنْ عَبَدَ اللَّهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ عَلَى مُقْتَضَى الْوَارِدِ كِتَابًا وَسُنَّةً.

فَالْعِبَادَةُ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ، لَا مَجَالَ فِيهَا لِرَأْيٍ، وَلَا مَجَالَ فِيهَا لِاجْتِهَادٍ.

الْعِبَادَةُ مُقَنَّةٌ، مُؤَقَّتَةٌ، مَشْرُوطَةٌ، «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»^(١)، أَي: فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَيْهِ.

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْم ٢٦٩٧)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْم ١٧١٨/

١٧)، مِنْ حَدِيثِ: عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

فَمَنْ أَدْرَكَتْهُ رِيَّاحُ السَّعَادَةِ، وَهَبَّتْ عَلَيْهِ بِسُكُونِهَا، حَتَّى يَسْتَقِرَّ قَلْبُهُ عَلَى قَرَارِهِ؛ مَنْ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ بِالتَّوَازُنِ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ، كَمَا كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: «تَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»^(١)، فَمَا تَعَلَّمُوا أَمْرًا مِنْ أُمُورِ الدِّينِ إِلَّا عَمِلُوا بِهِ.

وَلَا فَارِقَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِزَمَانٍ - رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ - .(*)



وفي روايةٍ لمُسلِمٍ (رقم ١٧١٨ / ١٨): «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ». (١) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى» (٨ / ١٩٢، ترجمة أبي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ: ٢٩١٦ / ط الخانجي)، وابن أبي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (رقم ٢٩٩٢٩)، وَأَحْمَدُ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥ / ٤١٠، رقم ٢٣٤٨٢)، وَالطَّحَاوِيُّ فِي «شَرْحِ مُشْكِلِ الْأَثَارِ» (٤ / ٨٣، رقم ١٤٥١)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ، قَالَ: «حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقَرِّئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا تَعَلَّمُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، لَمْ يُجَاوِزُوهُنَّ إِلَى الْعَشْرِ الْأُخْرَى حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِيهِنَّ مِنَ الْعَمَلِ، قَالَ: فَتَعَلَّمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَانْتَبَهُ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ

دَوَاءُ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ

فِي هَذِهِ الرِّيَّاحِ الْهُوجِ الَّتِي هِيَ بِمَهَابَتِهَا، تُطَوِّحُ بِالْقُلُوبِ، وَتَطِيرُ بِهَا كُلَّ صَوْبٍ، وَتَتَّبَعُ بِهَا كُلَّ حَدْبٍ، فِي هَذَا الشَّانِ يَنْبَغِي عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَتَأَمَّلَ فِي حَالِ قَلْبِهِ، وَمَا أَنْذَرَ عِلْمَ الْقُلُوبِ! فَإِنَّ النَّاسَ فِي غَفْلَةٍ -إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا-، فَأَقْبَلَ عَلَى قَلْبِهِ مُفْتَشًّا، وَفِي أَطْوَاءِ ضَمِيرِهِ مُنْقَبًا؛ لِيَنْظُرَ مَا انطَوَى عَلَيْهِ قَلْبُهُ، وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ فُؤَادُهُ، وَلِيَتَأَمَّلَ فِي حَالِهِ، أَمْرُضٍ هُوَ لِرَبِّهِ بِفِعَالِهِ وَقَالِهِ، أَمْ هُوَ عَابِدٌ لِهَوَاهُ؟!!!

وَالنَّفْسُ قَدْ تَكُونُ أَمَّارَةً، وَتَارَةً لَوَّامَةً، وَتَارَةً مُطْمَئِنَّةً، بَلْ فِي الْيَوْمِ الْوَاحِدِ وَالسَّاعَةِ الْوَاحِدَةِ؛ يَحْصُلُ مِنْهَا هَذَا وَهَذَا، وَالْحُكْمُ لِلْغَالِبِ عَلَيْهَا مِنْ أَحْوَالِهَا، فَكَوْنُهَا مُطْمَئِنَّةً وَصَفُ مَدْحٍ لَهَا، وَكَوْنُهَا أَمَّارَةً بِالسُّوءِ وَصَفُ ذَمٍّ لَهَا، وَكَوْنُهَا لَوَّامَةً يَنْقَسِمُ إِلَى الْمَدْحِ وَالذَّمِّ، بِحَسَبِ مَا تَلَوُّمٌ عَلَيْهِ.

مَرَضُ الْقَلْبِ بِاسْتِيْلَاءِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ عَلَيْهِ، لَهُ عِلَاجَانِ: مُحَاسَبَتُهَا وَمُخَالَفَتُهَا.

عَلَى الْمَرْءِ أَنْ يَنْظُرَ فِي نَفْسِهِ أَمْطَمَئِنَّةً هِيَ؟

أَلْوَامَةٌ؟

أَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ؟

فِي أَيِّ قِسْمٍ نَفْسُهُ قَدْ اسْتَقَرَّتْ؟

وَهِيَ لَا تَسْتَقِرُّ فِي قِسْمٍ أَبَدًا، فَتَارَةٌ تَكُونُ مُطْمَئِنَّةً، وَتَارَةٌ تَكُونُ لَوَّامَةً، وَتَارَةٌ تَكُونُ أَمَّارَةً بِالسُّوءِ.

«وَمَرَضُ الْقَلْبِ بِاسْتِيْلَاءِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ عَلَيْهِ، لَهُ عِلَاجَانِ:

مُحَاسَبَتُهَا وَمُخَالَفَتُهَا، وَهَلَاكُ الْقَلْبِ مِنْ إِهْمَالِ مُحَاسَبَتِهَا، وَمِنْ مُوَافَقَتِهَا وَاتِّبَاعِ هَوَاهَا.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ»^(١)، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا؛ أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، وَتَزِينُوا لِلْعَرَضِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَئِذٍ تُعَرِّضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ».

(١) «الزُّهْدُ» (رَقْمُ ٦٣٣)، وَأَخْرَجَهُ أَيضًا ابْنُ الْمُبَارِكِ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْمُ ٣٠٦)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (رَقْمُ ٣٤٤٥٩)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسِبَةِ النَّفْسِ» (رَقْمُ ٢)، وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (١/ ٥٢)، تَرْجَمَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ (٢)، مِنْ طَرَقٍ: عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ: «حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا...» فَذَكَرَهُ، وَجُودِ إِسْنَادِهِ مَوْقُوفًا الْأَلْبَانِيِّ فِي «الضَّعِيفَةِ» (٣/ رَقْمُ ١٢٠١).

وَذَكَرَ -أَيْضًا- (١) عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِشَرِّبَتِي؟

وَالْفَاجِرُ يَمْضِي قُدَّمًا، لَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ».

لَا تَلْقَى الْمُؤْمِنَ إِلَّا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، وَأَمَّا الْفَاجِرُ فَيَمْضِي قُدَّمًا!!

إِنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا أَضَاعَ نَفْسَهُ وَظَلَمَهَا؛ ضَيَّعَ حَظَّهَا مِنْ رَبِّهَا.

قَالَ الْحَسَنُ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ، مَا كَانَ لَهُ وَعَظُّ مِنْ نَفْسِهِ، وَكَانَتْ

الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ» (٢).

(١) «الزُّهْدُ» (رَقْم ١٦١٦)، وَأَخْرَجَهُ أَيْضًا ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٤)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ عَلَيْكَ: «وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللُّوَامَةِ» [القيامة: ٢]، قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا تَرَاهُ إِلَّا يَلُومُ نَفْسَهُ يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ يَقُولُ: مَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَا أَرَدْتُ بِشَرِّبَتِي؟ فَمَا تَرَاهُ إِلَّا يُعَاتِبُهَا، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَمْضِي قُدَّمًا فَلَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا يُلْقَى الْمُؤْمِنُ إِلَّا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ: مَاذَا أَرَدْتُ بِكَلِمَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِأَكْلَتِي؟ مَاذَا أَرَدْتُ بِشَرِّبَتِي؟ وَالْعَاجِزُ يَمْضِي قُدَّمًا لَا يُعَاتِبُ نَفْسَهُ».

(٢) أَخْرَجَهُ الْحُسَيْنُ الْمَرْوَزِيُّ فِي زَائِدِهِ عَلَى «الزُّهْدِ» لِابْنِ الْمُبَارَكِ (رَقْم ١١٠٣)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «كِتَابِ الْعِيَالِ» (رَقْم ٣٣٣)، وَفِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٦)، وَالِدِّيَنُورِيُّ فِي «الْمُجَالَسَةِ» (رَقْم ١٩١٧ وَ ٢٦٩٢)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٢/ ١٤٥)، تَرْجُمَةُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ: (١٦٩)، مِنْ طَرَفٍ: عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ بِخَيْرٍ مَا كَانَ لَهُ وَعَظُّ مِنْ نَفْسِهِ وَكَانَتْ الْمُحَاسَبَةُ مِنْ هِمَّتِهِ»، وَهُوَ صَحِيحٌ عَنْهُ.

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: «لَا يَكُونُ الْعَبْدُ تَقِيًّا، حَتَّى يَكُونَ لِنَفْسِهِ أَشَدَّ مُحَاسَبَةً مِنَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ»^(١)؛ وَلِهَذَا قِيلَ: «النَّفْسُ كَالشَّرِيكِ الْخَوَّانِ، إِنْ لَمْ تُحَاسِبْهُ ذَهَبَ بِمَالِكَ».

وَقَالَ مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ -أَيْضًا-: «التَّقِيُّ أَشَدُّ مُحَاسَبَةً لِنَفْسِهِ مِنْ سُلْطَانٍ عَاظٍّ، وَمِنْ شَرِيكِ شَحِيحٍ»^(٢).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^(٣) عَنْ وَهْبٍ، قَالَ: «مَكْتُوبٌ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ»: «حَقُّ عَلَيَّ الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنِّ أَرْبَعَ سَاعَاتٍ:

(١) ذكره الترمذي في «الجامع» معلقا (٤/ ٦٣٨، رقم ٢٤٥٩)، وأخرجه موصولا: وكيع في «الزهد» (رقم ٢٣٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (رقم ٣٥٢٧١ و ٣٥٦٢٥)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٥٨٠، رقم ١٢٢٨)، وابن أبي الدنيا في «مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ» (رقم ٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٨٩، ترجمة مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: ٢٥١)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٥٣ - ٣٥٤، ترجمة مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ: ٧٨٠٦)، بإسناد صحيح.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ» (رقم ٩)، وابن عساكر في «تاريخه» (٦١/ ٣٥٣)، بإسناد صحيح.

(٣) أخرجه ابنُ البَنَّا الحنبليُّ في «الرَّسَالَةِ الْمُغْنِيَةِ» (رقم ١٩)، مِنْ طَرِيقِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالْأَثَرُ أَخْرَجَهُ أَيْضًا ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزُّهْدِ» (رقم ٣١٣)، وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «الْمُصَنَّفِ - جَامِعِ مَعْمَرٍ» (رقم ١٩٧٩٠)، وهناد بن السري في «الزهد» (٢/ ٥٨٠، رقم ١٢٢٦)، وابن أبي الدنيا في «إصلاح المال» (رقم ٢٣٦)، وفي «الصمت» (رقم ٣١)، وفي «مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ» (رقم ١٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦/ ٤٣٥٢ و ٤٣٥٣)، =

سَاعَةً يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةً يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةً يَخْلُو فِيهَا مَعَ إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يُخْبِرُونَهُ بِعُيُوبِهِ وَيَصُدِّقُونَهُ عَنْ نَفْسِهِ، وَسَاعَةً يُخَلِّي بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَائِهَا فِيمَا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ؛ فَإِنَّ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ عَوْنًا عَلَى تِلْكَ السَّاعَاتِ، وَإِجْمَامًا لِلْقُلُوبِ» (١).

«وَكُلُّ السَّائِرِينَ إِلَى اللَّهِ، مُجْمَعُونَ عَلَى أَنْ مُرَاقَبَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْخَوَاطِرِ، سَبَبٌ لِحِفْظِهَا فِي حَرَكَاتِ الظَّوَاهِرِ، فَمَنْ رَاقَبَ اللَّهَ فِي سِرِّهِ، حَفِظَهُ اللَّهُ فِي حَرَكَاتِهِ فِي سِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ» (٢). (*)



بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ وَهَبِ بْنِ مُنْبِهِ، قَالَ: «مَكْتُوبٌ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: حَقٌّ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْفَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ...» فَذَكَرَهُ.

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» لابن القيم، الطبعة الأولى (١٤٣٢ هـ)، دار عالم الفوائد: مكة - (١) / ١٣١ - ١٣٣).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» لابن القيم، الطبعة الثالثة (١٤١٦ هـ)، دار الكتاب العربي: بيروت - (٢) / ٦٦).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَانْتَبَهُ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣ هـ / ٥ - ١٠ - ٢٠١٢ م.

مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ وَبَعْدَ الْعَمَلِ

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ مُحَاسَبَةَ النَّفْسِ وَاجِبَةٌ، يَجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تُحَاسِبَ نَفْسَكَ.
«وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ نَوْعَانِ: نَوْعٌ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَنَوْعٌ بَعْدَ الْعَمَلِ.

* مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ:

فَأَمَّا النُّوعُ الْأَوَّلُ: فَهُوَ أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ هَمِّهِ وَإِرَادَتِهِ، وَلَا يُبَادِرَ بِالْعَمَلِ،
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُ رُجْحَانُهُ عَلَى تَرْكِهِ.

قَالَ الْحَسَنُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ، فَإِنْ كَانَ لِلَّهِ مَضَى، وَإِنْ
كَانَ لِغَيْرِهِ؛ تَأَخَّرَ» (١).

وَشَرَحَ هَذَا بَعْضُهُمْ، فَقَالَ: «إِذَا تَحَرَّكَتِ النَّفْسُ لِعَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَهَمَّ بِهِ
الْعَبْدُ، وَقَفَ أَوَّلًا وَنَظَرَ، هَلْ ذَلِكَ الْعَمَلُ مَقْدُورٌ لَهُ أَوْ غَيْرُ مَقْدُورٍ وَلَا مُسْتَطَاعٌ؟

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (رَقْم ٣٥١٨٧)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٩/
رَقْم ٦٨٩٤)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنِ الْحَسَنِ، قَالَ: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا وَقَفَ عِنْدَ هَمِّهِ،...»
فَذَكَرَهُ.

وَأَخْرَجَ نَحْوَهُ الدُّوَلَابِيُّ فِي «الْكُنَى» (رَقْم ٧١٧)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، بِلَفْظٍ: «إِنَّ كُلَّ عَمَلٍ
سَيَبْدُو هَمًّا فَمَنْ هَمَّ بِخَيْرٍ فَلْيُمِضْهُ، وَمَنْ هَمَّ بِشَرٍّ فَلْيُمْسِكْ عَنْهُ».

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَقْدُورًا، لَمْ يُقَدِّمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ مَقْدُورًا، وَقَفَ وَقَفَةً أُخْرَى
وَنَظَرَ، هَلْ فَعَلَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ تَرْكِهِ، أَوْ تَرَكَهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ فِعْلِهِ؟

فَإِنْ كَانَ الثَّانِي تَرَكَهُ وَلَمْ يُقَدِّمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، وَقَفَ وَقَفَةً ثَالِثَةً وَنَظَرَ،
هَلْ الْبَاعِثُ عَلَيْهِ إِرَادَةٌ وَجْهَ اللَّهِ ﷻ وَثَوَابِهِ، أَوْ إِرَادَةُ الْجَاهِ وَالشَّاءِ وَالْمَالِ مِنَ
الْمَخْلُوقِ؟

فَإِنْ كَانَ الثَّانِي؛ لَمْ يُقَدِّمْ عَلَيْهِ، وَإِنْ أَفْضَى بِهِ إِلَى مَطْلُوبِهِ؛ لِئَلَّا يَعْتَادَ عَلَى
الشَّرْكِ؛ وَلِئَلَّا يُعَوِّدَ النَّفْسَ عَلَيْهِ؛ وَحَتَّى لَا يَخِيفَ عَلَى نَفْسِهِ الْعَمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ.
فَبَقَدَّرِ مَا يَخِيفُ عَلَيْهَا ذَلِكَ، يَثْقُلْ عَلَيْهَا الْعَمَلُ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

بِقَدْرِ مَا يَخِيفُ عَلَى النَّفْسِ الْعَمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ، مِنْ إِرَادَةِ الشَّاءِ وَالْجَاهِ وَالْحِظِّ
عِنْدَ غَيْرِ اللَّهِ، بِقَدْرِ مَا يَثْقُلُ عَلَيْهَا الْعَمَلُ لِلَّهِ، حَتَّى يَصِيرَ أَثْقَلَ شَيْءٍ عَلَيْهَا.

وَإِنْ كَانَ الْأَوَّلُ، وَقَفَ وَقَفَةً أُخْرَى، وَنَظَرَ هَلْ هُوَ مُعَانٌ عَلَيْهِ، وَلَهُ أَعْوَانٌ
يُسَاعِدُونَهُ وَيَنْصُرُونَهُ إِذَا كَانَ الْعَمَلُ مُحْتَاجًا إِلَى ذَلِكَ أَوْ لَا؟

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَعْوَانٌ أَمْسَكَ عَنْهُ، كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْجِهَادِ بِمَكَّةَ،
كَمَا أَمْسَكَ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الْقِتَالِ بِمَكَّةَ، حَتَّى صَارَ لَهُ شَوْكَةٌ وَأَنْصَارٌ، وَإِنْ وَجَدَهُ
مُعَانًا عَلَيْهِ، فَلْيُقَدِّمْ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ مَنْصُورٌ^(١)، وَلَا يَفُوتُ النَّجَاحَ إِلَّا مِنْ فَوَاتِ خِصْلَةٍ
مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ، وَإِلَّا فَمَعَاجِمُهَا، لَا يَفُوتُهُ النَّجَاحُ».

(١) فَقَدْ كَانَ الْجِهَادُ فِي ابْتِدَاءِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْهَجْرَةِ غَيْرَ مَأْدُونٍ فِيهِ؛ لِأَنَّ الَّذِي أَمَرَ بِهِ ﷺ
أَوَّلَ الْأَمْرِ هُوَ التَّبْلِيغُ وَالْإِنْدَارُ، وَالصَّبْرُ عَلَى أَدَى الْكُفَّارِ، وَالصَّفْحُ وَالْإِعْرَاضُ عَنِ

مُلَخَّصٌ ذَلِكَ: هَذِهِ أَرْبَعَةٌ مَقَامَاتٍ يَحْتَاجُ إِلَى مُحَاسَبَةِ نَفْسِهِ عَلَيْهَا قَبْلَ الْعَمَلِ.

فَاحْفَظْ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَزِيزٌ، وَقَلَّ الْإِخْفَاقُ، بَلْ انْتَفَى مَعَ الْإِتْيَانِ بِتِلْكَ الْمَقَامَاتِ، فَمَا كُلُّ مَا يُرِيدُ الْعَبْدُ فِعْلُهُ يَكُونُ مَقْدُورًا لَهُ، وَلَا كُلُّ مَا يَكُونُ مَقْدُورًا

الْمُشْرِكِينَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]، وَقَالَ أَيضًا: ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّلْهُمْ بِالنِّبَاتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وَقَالَ أَيضًا: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]، قَالَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَغَيْرُهُمَا: «كَانَ هَذَا قَبْلَ الْقِتَالِ».

ثُمَّ أَدْنَى اللَّهُ ﷻ بَعْدَ الْهَجْرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْقِتَالِ إِذَا ابْتَدَأَهُمُ الْكُفْرَانُ بِالْقِتَالِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: «أُذِنَ لَهُمْ فِي قِتَالِهِمْ بَعْدَ مَا عَفَا عَنْهُمْ عَشْرَ سِنِينَ»، وَقَرَأَ: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠]، وَقَالَ: «هُؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ».

ثُمَّ شَرَعَ اللَّهُ الْإِبْتِدَاءَ بِالْقِتَالِ عَلَى الْإِطْلَاقِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١]، وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وَتُسَمَّى هَذِهِ آيَةُ السَّيْفِ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابِهِ عَلَى اللَّهِ»، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ (رَقْم ١٣٩٩ و ٦٩٢٤)، وَمُسْلِمٌ (رَقْم ٢٠)، مِنْ حَدِيثِ: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، وَالْحَدِيثُ بِنَحْوِهِ أَيضًا فِي «الصَّحِيحَيْنِ» مِنْ حَدِيثِ: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيثِ: أَنَسٍ رضي الله عنه، وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيثِ: جَابِرٍ رضي الله عنه.

لَهُ، يَكُونُ فِعْلُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ تَرْكِهِ، وَلَا كُلُّ مَا يَكُونُ فِعْلُهُ خَيْرًا مِنْ تَرْكِهِ؛ يَفْعَلُهُ اللَّهُ، وَلَا كُلُّ مَا يَفْعَلُهُ اللَّهُ؛ يَكُونُ مُعَانًا عَلَيْهِ.

فَإِذَا حَاسَبَ نَفْسَهُ عَلَى ذَلِكَ، تَبَيَّنَ لَهُ مَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ، وَمَا يُحْجِمُ عَنْهُ.
فَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ نَوْعِي مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَهُوَ مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ.

* النَّوْعُ الثَّانِي: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ:

وَمُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامٌ:

أَحَدُهَا: مُحَاسَبَتُهَا عَلَى طَاعَةٍ فَصَّرَتْ فِيهَا مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمْ تُوَقِّعْهَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي.

وَحَقُّ اللَّهِ فِي الطَّاعَةِ سِتَّةُ أُمُورٍ:

وَهِيَ الْإِخْلَاصُ فِي الْعَمَلِ، وَالنَّصِيحَةُ لِلَّهِ فِيهِ، وَمُتَابَعَةُ الرَّسُولِ ﷺ فِيهِ، وَشُهُودٌ مُشْهَدِ الْإِحْسَانِ فِيهِ، وَشُهُودٌ مِنْهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَشُهُودٌ تَقْصِيرِهِ فِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَيَحَاسِبُ نَفْسَهُ، هَلْ وَفَى هَذِهِ الْمَقَامَاتِ حَقَّهَا؟ وَهَلْ أَتَى بِهَا فِي هَذِهِ الطَّاعَةِ؟
الْقِسْمُ الثَّانِي: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى كُلِّ عَمَلٍ كَانَ تَرْكُهُ خَيْرًا لَهُ مِنْ فِعْلِهِ.

الْقِسْمُ الثَّلَاثُ: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ عَلَى أَمْرٍ مُبَاحٍ، أَوْ مُعْتَادٍ، لِمَ فَعَلَهُ؟ وَهَلْ أَرَادَ بِهِ اللَّهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، فَيَكُونُ رَابِحًا، أَوْ أَرَادَ بِهِ الدُّنْيَا وَعَاجِلَهَا، فَيُخْسِرَ ذَلِكَ الرَّبِّحَ، وَيَفُوتُهُ الظَّفَرُ بِهِ؟» (١).

(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١ / ١٣٨ - ١٣٩).

فِيحَاسِبُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَيَحَاسِبُ الْمَرْءَ نَفْسَهُ بَعْدَ الْعَمَلِ،
 الْمُنَافِقُ يَمْضِي قُدْمًا هَكَذَا، لَا حَسِيبَ وَلَا رَقِيبَ، وَلَا يَتَوَقَّفُ مُتَمَهِّلاً،
 مُتَأَنِّياً، مُتَفَكِّراً؛ لِيُفْتَشَ فِي قَلْبِهِ، وَلِيُنْتَقَبَ فِي ضَمِيرِهِ، وَلِيَنْظُرَ فِي دَوَافِعِهِ،
 حَتَّى يُحَرَّرَ مُحَقَّقًا نَيْتَهُ، يَمْضِي قُدْمًا وَلَا يَلْوِي عَلَى شَيْءٍ، وَلَا يَلْتَفِتُ إِلَى
 أَمْرٍ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَتَوَقَّى.

* حَاسِبْ نَفْسَكَ وَتَعَلَّمِ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ!!

وَأَنْتَ خَيْرٌ، أَنْكَ يُمَكِّنُ أَنْ تَتَعَلَّمَ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ؛ لِأَنَّ الضَّرِيرَ لَا يَمُدُّ
 قَدَمَهُ حَتَّى يَضَعَ عَصَاهُ، لَا يَضَعُ قَدَمَهُ حَتَّى يَضَعَ عَصَاهُ، تَعَلَّمَ الْحِكْمَةَ مِنَ
 الضَّرِيرِ، يَدُبُّ عَلَى عَصَاهُ، وَلَا يَرْفَعُ قَدَمَهُ لِيَضَعَهَا حَتَّى يَضَعَ عَصَاهُ.

تَبَصَّرَ، تَأَنَّ مُتَمَهِّلاً، نَاطِرًا فِي حَالِ قَلْبِكَ وَسَوَاءِ ضَمِيرِكَ، لَا تَكُنْ كَالْهَمَجِ
 الرَّعَاعِ، فَقَدْ مَاجَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا، تَعْلُو بِهِمْ مَوْجَةٌ وَتَطْفُو بِهِمْ، وَتَنْحَطُّ بِهِمْ أُخْرَى
 وَتَسْفُلُ بِهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْرُونَ لِمَا ارْتَفَعُوا، وَلِمَا انْحَطُّوا، وَإِنَّمَا هُمْ سَائِرُونَ.

* أَضُرَّ شَيْءٌ عَلَى الْعَبْدِ تَرَكَ مُحَاسِبَةَ النَّفْسِ وَالِاسْتِهَانَةَ:

«أَضُرَّ شَيْءٌ عَلَيْكَ الْإِسْتِهَانَةُ وَالْإِهْمَالُ، وَتَرَكَ الْمُحَاسِبَةَ، وَالِاسْتِرْسَالَ،
 وَتَسْهِيلُ الْأُمُورِ وَتَمَشِيَّتُهَا، هَذَا أَضُرَّ مَا عَلَى النَّفْسِ، فَإِنَّ هَذَا يُوُولُ بِالْمَرْءِ إِلَى
 الْهَلَاكِ.

وَهَذِهِ حَالُ أَهْلِ الْعُرُورِ، يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ عَنِ الْعَوَاقِبِ، وَيَمَشِي الْحَالَ، وَيَتَكَلَّمُ
 عَلَى الْعَفْوِ، فِيَهْمَلُ مُحَاسِبَةَ نَفْسِهِ، وَالنَّظَرَ فِي عَوَاقِبِهَا، وَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ؛ سَهَّلَ

عَلَيْهِ مُوَاقَعَةُ الذُّنُوبِ وَأَنْسَ بِهَا، وَعَسُرَ عَلَيْهِ فِطَامُهَا، وَلَوْ حَضَرَهُ رُشْدُهُ لَعَلِمَ أَنَّ
الْحِمِيَّةَ أَسْهَلُ مِنَ الْفِطَامِ، وَتَرَكَ الْمَأْلُوفِ وَالْمُعْتَادِ» (١). (*)



(١) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١ / ١٤٠).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَانْتَبِهَ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-

كَيْفَ نُحَاسِبُ أَنْفُسَنَا؟

«قَالَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا^(١): «حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ، ذُكِرَ أَنَّهُ مِنْ وَلَدِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ تَوْبَةً بِنِ الصِّمَّةِ بِ(الرَّقَّةِ)، وَكَانَ مُحَاسِبًا لِنَفْسِهِ، فَحَسَبَ يَوْمًا، فَإِذَا هُوَ ابْنُ سِتِّينَ سَنَةً، فَحَسَبَ أَيَّامَهَا -أَيَّامَ السِّتِّينَ- فَإِذَا هِيَ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ يَوْمٍ وَخَمْسُمِئَةَ يَوْمٍ، فَصَرَخَ، وَقَالَ: يَا وَيْلَتَا، أَلْقَى رَبِّي بِأَحَدٍ وَعِشْرِينَ أَلْفَ ذَنْبٍ، كَيْفَ وَفِي كُلِّ يَوْمٍ أَلْفٌ مِنَ الذُّنُوبِ؟!»

ثُمَّ خَرَّ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ مَيِّتٌ، فَسَمِعُوا قَائِلًا يَقُولُ: يَا لَكَ رَكُضَةً إِلَى الْفِرْدَوْسِ الْأَعْلَى!!». -فِي خُطُوبَةٍ وَاحِدَةٍ-

وَجَمَاعُ ذَلِكَ: أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَوَّلًا عَلَى الْفَرَائِضِ، فَإِنْ تَذَكَّرَ فِيهَا نَقْصًا تَدَارَكَهُ، إِمَّا بِقَضَاءٍ أَوْ إِصْلَاحٍ، ثُمَّ يُحَاسِبُهَا عَلَى الْمَنَاهِي، فَإِنْ عَرَفَ أَنَّهُ ارْتَكَبَ مِنْهَا شَيْئًا، تَدَارَكَهُ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَالْحَسَنَاتِ الْمَاحِيَةِ، ثُمَّ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى الْغَفْلَةِ، فَإِنْ كَانَ قَدْ غَفَلَ عَمَّا خُلِقَ لَهُ، تَدَارَكَهُ بِالذِّكْرِ، وَالِإِقْبَالِ عَلَى اللَّهِ، ثُمَّ

(١) «مُحَاسِبَةُ النَّفْسِ» (رَقْم ٧٦)، وَمِنْ طَرِيقِهِ: أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (٢/

رَقْم ٩١٦)، وَالْخَطِيبُ كَمَا فِي الْمُنْتَخَبِ مِنْ كِتَابِهِ «الرُّهُدُ» (رَقْم ٧٠).

يُحَاسِبُهَا بِمَا تَكَلَّمَ بِهِ، أَوْ مَشَتْ إِلَيْهِ رِجْلَاهُ، أَوْ بَطَشَتْهُ يَدَاهُ، أَوْ سَمِعَتْهُ أُذُنَاهُ، مَاذَا
أَرَدْتَ بِهَذَا؟ وَلِمَنْ فَعَلْتَ؟ وَعَلَى أَيِّ وَجْهِ فَعَلْتَ؟

وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يُنْشَرَ لِكُلِّ حَرَكَةٍ وَكَلِمَةٍ مِنْهُ دِيْوَانَانِ:

دِيْوَانٌ: لِمَنْ فَعَلْتَ؟

وَدِيْوَانٌ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟

كُلُّ حَرَكَةٍ مِنْكَ، وَكُلُّ كَلِمَةٍ مِنْكَ، يُنْشَرُ لَهَا دِيْوَانَانِ، دِيْوَانٌ: لِمَنْ فَعَلْتَ؟
وَدِيْوَانٌ: كَيْفَ فَعَلْتَ؟

فَالْأَوَّلُ: سُؤَالٌ عَنِ الْإِخْلَاصِ، وَالثَّانِي: سُؤَالٌ عَنِ الْمُتَابَعَةِ.

قَالَ رَبُّكَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلِنَّهُمَّ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿[سورة

الحجر: ٩٢-٩٣].

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَنَسْتَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلَبَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٦﴾

فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿[الأعراف: ٦-٧].

﴿لِنَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٨]، فَإِذَا سُئِلَ الصَّادِقُونَ،

وَحُوسِبُوا عَلَى صِدْقِهِمْ، فَمَا الظَّنُّ بِالكَاذِبِينَ؟!!

﴿لِنَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾، إِذَا سُئِلَ الصَّادِقُونَ، فَمَاذَا يُفْعَلُ

بِالكَاذِبِينَ؟!!

قَالَ مُقَاتِلٌ^(١): «يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَخَذْنَا... مِيثَقَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٧]: لِكَيْ يُسْأَلَ الصَّادِقِينَ، يَعْنِي: النَّبِيِّنَ عَنِ تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ».

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: «يُسْأَلُ الْمُبَلِّغِينَ الْمُؤَدِّينَ عَنِ الرُّسُلِ»^(٢)، يَعْنِي: هَلْ بَلَّغُوا عَنْهُمْ، كَمَا يُسْأَلُ الرُّسُلُ، هَلْ بَلَّغُوا عَنِ اللَّهِ تَعَالَى؟

وَالْتَحْقِيقُ أَنَّ الْآيَةَ تَتَنَاوَلُ هَذَا وَهَذَا، فَالصَّادِقُونَ هُمُ الرُّسُلُ، وَالْمُبَلِّغُونَ عَنْهُمْ، فَيُسْأَلُ الرُّسُلُ عَنِ تَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ، وَيُسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى الْمُبَلِّغِينَ عَنِ الرُّسُلِ، عَنِ تَبْلِيغِ مَا بَلَّغَتْهُمُ الرُّسُلُ، ثُمَّ يُسْأَلُ الَّذِينَ بَلَّغَتْهُمُ الرِّسَالَةَ، مَاذَا أَجَابُوا الْمُرْسَلِينَ؟

كَمَا قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

قَالَ قَتَادَةُ: «كَلِمَتَانِ يُسْأَلُ عَنْهُمَا الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ، مَاذَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟ وَمَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ؟»^(٣).

فَيُسْأَلُ عَنِ الْمَعْبُودِ، وَعَنِ الْعِبَادَةِ.

وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [النكاثر: ٨].

(١) «تفسيره» (٣ / ٣٦).

(٢) ذكره البُخَارِيُّ معلقاً في «صحيحه» في (كتاب التوحيد، باب ٤٠)، وأخرجه موصولاً عبد الرحمن بن الحسن الهمداني في «تفسير مجاهد» (ص ٥٤٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠ / ٢١٤)، بإسناد صحيح.

(٣) ذكره ابن القيم في «مدارج السالكين» (١ / ٣٥٠)، وفي غيره، وشيخ الإسلام ابن تيمية كما في «مجموع الفتاوى» (١٥ / ١٠٥) وفي غيره من قول أبي العالية.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (١): «يَقُولُ تَعَالَى: ثُمَّ لَيْسَأَلَنَّكُمْ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا عَنِ النَّعِيمِ الَّذِي كُنْتُمْ فِيهِ فِي الدُّنْيَا، مَاذَا عَمِلْتُمْ فِيهِ؟ وَمَنْ أَيْنَ وَصَلْتُمْ إِلَيْهِ؟ وَفِيمَا أَصَبْتُمُوهُ؟ وَمَاذَا عَمِلْتُمْ بِهِ؟».

وَقَالَ قَتَادَةُ: «إِنَّ اللَّهَ سَائِلٌ كُلَّ عَبْدٍ عَمَّا اسْتَوَدَعَهُ مِنْ نِعْمَتِهِ وَحَقِّهِ» (٢).

وَالنَّعِيمُ الْمَسْئُولُ عَنْهُ نَوْعَانِ:

- نَوْعٌ: أُخِذَ مِنْ حِلِّهِ، وَصُرِفَ فِي حَقِّهِ، فَيُسْأَلُ عَنْ شُكْرِهِ.

- وَنَوْعٌ: أُخِذَ بِغَيْرِ حِلِّهِ، وَصُرِفَ فِي غَيْرِ حَقِّهِ، فَيُسْأَلُ عَنْ مُسْتَخْرِجِهِ

وَمَصْرِفِهِ.

فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ مَسْئُولًا وَمُحَاسَبًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ؛ حَتَّى عَلَى سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَقَلْبِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فَهُوَ حَقِيقٌ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ قَبْلَ أَنْ يُنَاقَشَ الْحِسَابَ. (*)



(١) «تفسيره» (٢٤ / ٥٨١).

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «تفسيره» (٣ / رَقْم ٣٦٨٩)، وَالطَّبْرِي فِي «تفسيره» (٢٤ / ٥٨٦)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣ هـ / ٥-١٠-

وَجُوبُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ

وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ وَجُوبِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ - هَذَا أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَيْكَ، لَيْسَ تَطَوُّعًا مِنْكَ، وَلَا نَفْلًا، وَلَا مِثَّةً، هَذَا أَمْرٌ وَاجِبٌ عَلَيْكَ، إِنْ لَمْ تَفْعَلْهُ، فَأَنْتَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، مُعَاقَبٌ عَلَى التَّخَلُّفِ عَنْهُ - دَلَّ عَلَىٰ وَجُوبِ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، يَقُولُ تَعَالَى: لِيَنْظُرَ أَحَدُكُمْ، مَا قَدَّمَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ، أَمِنَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تُنَجِّيهِ، أَمْ السَّيِّئَاتِ الَّتِي تُوبِقُهُ؟

قَالَ قَتَادَةُ: «مَا زَالَ رَبُّكُمْ يُقَرِّبُ السَّاعَةَ، حَتَّىٰ جَعَلَهَا كَغَدٍ»^(١).

وَالْمَقْصُودُ أَنْ صَلَاحَ الْقَلْبِ بِمُحَاسَبَةِ النَّفْسِ، وَأَنْ فَسَادَ الْقَلْبِ بِإِهْمَالِ النَّفْسِ، وَالِاسْتِرْسَالِ مَعَهَا»^(٢). (*)



(١) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «تَفْسِيرِهِ» (٣/ رَقْم ٣١٩٥)، وَالطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ»، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.
 (٢) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١/ ١٤٠ - ١٤٣).
 (*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيَقُّظٌ وَانْتِبَهُ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣ هـ / ٥-١٠ -

احذِرِ الاسْتِهَانَةَ؛ فَبِهَا الْهَلَاكُ!!

وَلَهُ فِي النَّخْلَةِ الْكُبْرَى أَرِيكَ
لِصِغَارِ الْمُلْكِ أَصْحَابِ الْعُهُودِ
وَهُوَ فِي الْبَابِ الْأَمِينِ الْحَازِمُ

كَانَ لِلْغُرَبَانِ فِي الْعَصْرِ مَلِيكَ
فِيهِ كُرْسِيُّ وَخِذْرٌ وَمُهُودُ
جَاءَهُ يَوْمًا نُدُورُ الْخَادِمِ

قَالَ.. -أَيُّ الْخَادِمِ الْمُسَمَّى نُدُورَ-

أَنْتَ مَا زِلْتَ تُحِبُّ النَّاصِحِينَ
جَازَتْ الْقَصْرَ وَدَنْتَ فِي الْجُدُورِ
قَبْلَ أَنْ نَهْلِكَ فِي أَشْرَاقِهَا
ثُمَّ أَدْنَى خَادِمِ الْخَيْرِ وَقَالَ:
أَنَا ذُو الْمَنْقَارِ غَلَابُ الرِّيَّاحِ
أَنَا لَا أَبْصِرُ تَحْتِي يَا نُدُورُ
قَامَ بَيْنَ الرِّيْحِ وَالنَّخْلِ خِصَامُ
فَبَدَا لِلرِّيْحِ سَهْلًا قَلْعُهَا
وَهَوَى الدِّيَّوَانَ وَانْقَضَ السَّرِيرُ

قَالَ: يَا فَرَعَ الْمُلُوكِ الصَّالِحِينَ
سُوسَةٌ كَانَتْ عَلَى الْقَصْرِ تَدُورُ
فَابْعَثِ الْغُرَبَانَ فِي إِهْلَاقِهَا
ضَحِكَ السُّلْطَانُ مِنْ هَذَا الْمَقَالِ
أَنَا رَبُّ الشُّوْكَةِ الضَّافِي الْجَنَاحِ
«أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ»
ثُمَّ لَمَّا كَانَ عَامٌ بَعْدَ عَامٍ
وَإِذَا النَّخْلَةُ أَقْوَى جِذْعُهَا
فَهَوَتْ لِلْأَرْضِ كَالْتَلِّ الْكَبِيرِ

فَدَهَا السُّلْطَانَ ذَا الْخَطْبِ الْمَهُولِ وَدَعَا خَادِمَهُ الْغَالِي يَقُولُ:
يَا نُدُورَ الْخَيْرِ، أَسْعِفْ بِالصِّياحِ مَا تَرَى مَا فَعَلْتَ فِينَا الرِّياحِ؟
قَالَ: يَا مَوْلَايَ، لَا تَسْأَلْ نُدُورَ «أَنَا لَا أَنْظُرُ فِي هَذِي الْأُمُورِ»؟^(١)

فَتَأَمَّلْ فِي عَاقِبَةِ الْإِسْتِهَانَةِ، لَمَّا أَهْمَلَ سُوسَةَ كَانَتْ عَلَى الْقَصْرِ تَدُورُ،
وَالْقَصْرُ هُنَا مَا هُوَ؟ هُوَ تِلْكَ النَّخْلَةُ السَّامِقَةُ، الَّتِي اتَّخَذَ مَلِكُ الْغَرْبَانِ
إِيْوَانَهُ بَدِيْوَانِهِ فِي أَعْلَاهَا، ثُمَّ جَاءَتْ هَذِهِ فَأُهْمِلَتْ، وَعَامًا بَعْدَ عَامٍ، وَقَعَتْ
الْفَاجِعَةُ.

تَأَمَّلْ فِي كُلِّ مُلْكٍ يَزُولُ، تَجِدْهُ مِنْ إِهْلَاكِ تِلْكَ السُّوسَةِ الَّتِي حَوْلَ
الْقَصْرِ تَدُورُ، فَيُهْمِلُهَا مَنْ لَا يُقَدِّرُ عَوَاقِبَ الْأُمُورِ، ثُمَّ يَبْكِي دَمًا، وَلَا تَ
حِينَ مَنَدَمٍ!

وَلَا يُسْعِفُهُ نَدَمٌ بِحَالٍ!!

لَا تَسْتَهِنْ، إِيَّاكَ وَالْإِسْتِهَانَةَ، فَإِنَّ خَطْبَهَا عَظِيمٌ، كُنْ حَازِمًا، وَخُذْ الْأُمُورَ مِنْ
أَوَائِلِهَا، فَأَمْسِكْ بِزِمَامِهَا، وَصَرِّفْهَا، وَلَا تَدْعُ زِمَامَهَا بِيَدِ الْهَوَى يُصَرِّفُهَا، فَإِنَّهَا
بَعْدَ حِينٍ تَشْتَدُّ عَلَيْكَ؛ إِذْ تُحِيطُ بِكَ، فَهِيَ مُهْلِكَةٌ لِلْأَبْعَدِ لَا مَحَالَه.

حَاسِبْ نَفْسَكَ، فَمُحَاسِبَةُ النَّفْسِ وَاجِبَةٌ، حَتَّى لَا يَنْدَمَ الْمَرْءُ وَلَا تَ سَاعَةً

مَنَدَمٍ!!

(١) القصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقي (المتوفى: ١٣٥١ هـ) بعنوان: «ملك الغربان

ونُدُور الخادم» في ديوانه: «الشوقيات» (٤ / ١٣٥).

أَسْأَلُ اللَّهَ - جَلَّتْ قُدْرَتُهُ، وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ - أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِالْيَقِظَةِ بَعْدَ
الْغَفْلَةِ، وَأَنْ يَهْدِينَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-

ثَمَرَاتُ مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ،
وَصُورٌ مِنْ مُحَاسَبَةِ السَّلَفِ أَنْفُسَهُمْ

«فَفِي مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ مَصَالِحٌ، مِنْهَا الإِطْلَاعُ عَلَى عُيُوبِهَا، وَمَنْ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى عَيْبِ نَفْسِهِ، لَمْ يُمَكِّنْهُ إِزَالَتُهُ، فَإِذَا اطَّلَعَ عَلَى عَيْبِ النَّفْسِ، مَقَّتَهَا فِي ذَاتِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

وَقَدْ رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ» (١): عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: «لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ، حَتَّى يَمُقَّتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ، فَيَكُونُ لَهَا أَشَدَّ مَقَّتًا».

وَقَالَ مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: «لَوْ لَا مَا أَعْلَمُ مِنْ نَفْسِي لَقَلَيْتُ النَّاسَ» (٢).

(١) «الزُّهْدُ» (رَقْم ٧١٣)، وَأَخْرَجَهُ أَيضًا عَبْدُ الرَّزَاقِ فِي «المُصَنَّفِ - جَامِعِ مَعْمَرٍ» (رَقْم ٢٠٤٧٣)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «المُصَنَّفِ» (رَقْم ٣٠١٦٣ وَ ٣٤٥٨٤)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْم ٢٣٣)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٣)، وَالطَّبْرِيُّ فِي «تَفْسِيرِهِ» (١ / ٨)، عَنْ أَبِي قَلَابَةَ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: «لَا يَفْقَهُ الرَّجُلُ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى يَمُقَّتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللَّهِ...» فَذَكَرَهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الكُبْرَى» (٩ / ١٤٤)، تَرْجُمَةُ مُطَرِّفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ: (٣٨٥٥)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٤)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الحَلِيَّةِ» (٢ /

٢٠٩، تَرْجُمَةُ ١٧٨)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

فَفِي النَّاسِ شَرٌّ كَبِيرٌ - إِلَّا مَنْ رَحِمَ الْخَيْرُ الْبَصِيرُ -، وَمَهْمَا قَلَبْتَ النَّاسَ، خَرَجَ لَكَ مِنْ وَرَاءِ تَقْلِيْبِهِمْ أُمُورٌ.

«فَلَوْلَا مَا أَعْلَمَ مِنْ نَفْسِي - وَأَنَّهَا أَسْوَأُ، وَقَدْ انْطَوَتْ عَلَى الشَّرِّ الْكَبِيرِ - لَقَلَيْتُ النَّاسَ»؛ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا لَمْ يَعْلَمْ حَالَ نَفْسِهِ، وَخَبَرَ حَالَ غَيْرِهِ، فَوَجَدَ الشَّرَّ بَازِغًا، وَوَجَدَ آفَاتِ النَّفُوسِ حَالَةً؛ فَإِنَّهُ يَمُوتُ غَيْرَهُ، وَلَوْ عَلِمَ نَفْسَهُ، لَكَانَ لَهَا أَشَدَّ مَقْتًا.

قَالَ مُطَرِّفٌ فِي دُعَائِهِ بِعَرَفَةَ: «اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّ النَّاسَ لِأَجْلِي»^(١).

فَيَرَى نَفْسَهُ فِي الْمَوْقِفِ فِي عَرَفَاتِ أَسْوَأَ النَّاسِ، وَأَزْدَاءَ النَّاسِ، وَشَرَّ النَّاسِ، فَيَقُولُ: «اللَّهُمَّ لَا تَرُدَّ النَّاسَ لِأَجْلِي»، مِنْ بَابِ هَضْمِ النَّفْسِ، وَالْإِزْرَاءِ عَلَيْهَا، وَالْحَطِّ عَلَيْهَا؛ لِأَنَّ مَنْ ذَاقَ طَعْمَ نَفْسِهِ هَلَكَ.

فَالنَّفْسُ كَمَا بَحْرِ، لَا يَشْبَعُ وَارِدُهُ مَهْمَا شَرِبَ مِنْهُ، فَمَا يَزَالُ يَعْْبُ مِنْ مَاءِ الْبَحْرِ، حَتَّى تَنْقَدَّ مَعِدَّتُهُ، وَلَا رِيٍّ، وَلَا ارْتِوَاءً، فَاللَّهُمَّ لَا تُذِقْنَا طَعْمَ أَنْفُسِنَا يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ!!

قَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ: «لَمَّا نَظَرْتُ إِلَى أَهْلِ عَرَفَاتٍ، ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَدْ غُفِرَ لَهُمْ، لَوْلَا أَنِّي كُنْتُ فِيهِمْ»^(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ بَلْفِظًا: «لَوْ حَمَدْتُ نَفْسِي لَقَلَيْتُ النَّاسَ».

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْمُ ١٣٦٣)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْمُ ٢٥)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ سَعْدٍ فِي «الطَّبَقَاتِ الْكُبْرَى» (٩ / ٢٠٨)، تَرْجَمَهُ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُزَنِيِّ: (٣٩١٢)، وَعَبَّاسُ الدُّورِيِّ فِي «تَارِيخِ ابْنِ مَعِينٍ» (٤ / رَقْمُ ٤٥٧٠)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي

وَقَالَ أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: «إِذَا ذَكَرَ الصَّالِحُونَ، كُنْتُ عَنْهُمْ بِمَعْرَلٍ» (١).

وَلَمَّا احْتَضَرَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، دَخَلَ عَلَيْهِ أَبُو الْأَشْهَبِ وَحَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، فَقَالَ لَهُ حَمَّادُ: «يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَلَيْسَ قَدْ أَمِنْتَ مِمَّا كُنْتَ تَخَافُهُ، وَتَقْدُمُ عَلَيَّ مَنْ تَرْجُوهُ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ؟

فَقَالَ: يَا أَبَا سَلَمَةَ، أَتَطْمَعُ لِمِثْلِي أَنْ يَنْجُوَ مِنَ النَّارِ؟!!

قَالَ: إِي وَاللَّهِ، إِنِّي لَا أَرْجُو لَكَ ذَلِكَ» (٢).

أَتَطْمَعُ لِمِثْلِي أَنْ أَنْجُوَ مِنَ النَّارِ؟!!

وَعَنْ مُسْتَلِمِ (٣) بْنِ سَعِيدِ الْوَاسِطِيِّ، فِيمَا ذَكَرَ ابْنَ كَثِيرٍ فِي «الْبَدَايَةِ» (٤)، قَالَ: «أَخْبَرَنِي حَمَّادُ بْنُ جَعْفَرِ بْنِ زَيْدٍ، أَنَّ أَبَاهُ أَخْبَرَهُ، قَالَ: خَرَجْنَا فِي

«مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٦)، والدينوري في «المجالسة» (٦ / رَقْم ٢٦٩٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٠ / رَقْم ٧٩٠٢ و ٧٩٠٣)، بإسناد صحيح.

(١) أَخْرَجَهُ الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢ / ٢٣٩ - ٢٤٠)، وابن أبي الدنيا في

«مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٢٨)، وابن عدي في مقدمة «الكامل» (١ / ١٤٥)، وأبو نعيم في

«الحلية» (٣ / ٥، ترجمة أَيُّوبُ السَّخْتِيَانِيُّ: ٢٠١)، والبيهقي في «الشعب» (١٠ / رَقْم

٧٩٠٠)، بإسناد صحيح.

(٢) أَخْرَجَهُ ابن أبي الدنيا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٠)، بإسناد صحيح.

(٣) هو ابنُ سَعِيدِ الْوَاسِطِيِّ: ثقة، انظر: «التاريخ الكبير» للبخاري (٨ / ترجمة ٢١٨٢)،

و«الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (٨ / ترجمة ٢٠٠٠).

(٤) «البداية والنهاية» لابن كثير، الطبعة الأولى (١٤١٨هـ)، دار هجر: القاهرة - (١٢ /

٢٦٦).

غَزْوَةٍ إِلَى (كَابُولَ)، وَفِي الْجَيْشِ صِلَةَ بُنِّ أَشِيمَ، فَنَزَلَ النَّاسُ عِنْدَ الْعَتَمَةِ، فَصَلُّوا، ثُمَّ اضْطَجَعَ.

فَقُلْتُ: لَأَرْمُقَنَّ عَمَلَهُ، فَالْتَمَسَ غَفْلَةَ النَّاسِ، حَتَّى إِذَا قُلْتُ: هَدَّاتِ الْعُيُونُ، وَثَبَ، فَدَخَلَ غَيْضَةً قَرِيبًا مِنَّا، فَدَخَلْتُ عَلَى إِثْرِهِ، فَتَوَضَّأْتُ ثُمَّ قَامَ يُصَلِّي، وَجَاءَ أَسَدٌ حَتَّى دَنَا مِنْهُ، فَصَعِدْتُ فِي شَجَرَةٍ، فَتَرَاهُ التَّفَتَّ أَوْ عَدَّهُ جَرُوءًا، فَلَمَّا سَجَدَ، قُلْتُ: الْآنَ يَفْتَرِسُهُ الْأَسَدُ، فَجَلَسَ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا السَّبْعُ، اطْلُبِ الرِّزْقَ فِي مَكَانٍ آخَرَ، فَوَلَّى وَإِنْ لَهُ لَزَيْرًا.

أَقُولُ: تَصَدَّعُ الْجِبَالُ مِنْهُ، قَالَ: فَمَا زَالَ كَذَلِكَ يُصَلِّي، حَتَّى كَانَ عِنْدَ الصُّبْحِ، جَلَسَ، فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى بِمَحَامِدِ لَمْ أَسْمَعْ بِمِثْلِهَا، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ، وَمِثْلِي يَصْغُرُ أَنْ يَجْتَرِيَ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ!!
قَالَ: ثُمَّ رَجَعَ، وَأَصْبَحَ كَأَنَّهُ بَاتَ عَلَى الْحَشَايَا، وَأَصْبَحْتُ وَبِي مِنَ الْفَتْرَةِ شَيْءٌ؛ اللَّهُ بِهِ عَالِمٌ.

والأثر أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (رقم ٨٦٣)، ومن طريقه: الفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢/ ٧٩ - ٨٠)، ترجمة صِلَةَ بُنِّ أَشِيمَ، وابن أبي الدنيا في «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رقم ٣٣)، وفي «مجابي الدعوة» (رقم ٥٥)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ رقم ٨٣٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٤٠)، ترجمة صِلَةَ بُنِّ أَشِيمَ: (١٨٤)، والبيهقي في «الشعب» (٤/ رقم ٢٩٤١)، عَنْ الْمُسْتَلِمِ بْنِ سَعِيدِ الْوَاسِطِيِّ،... بِإِسْنَادِهِ، مِثْلَهُ، وَإِسْنَادُهُ لَا بِأَسَ بِهِ.

وَمَا بَاتَ قَائِمًا، وَلَا مِنَ السَّبْعِ مُشْفِقًا، وَلَا لَهُ أَمْرًا وَنَاهِيًا، وَأَمَا صَلَّةٌ فَإِنَّهُ لَمَّا أَصْبَحَ، كَأَنَّمَا بَاتَ عَلَى الْحَشَايَا، وَهُوَ يُعَامِلُ رَبَّهُ، وَيَفِرُّ بِقَلْبِهِ مِنْ مَوَاطِنِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ، فَيَنْتَظِرُ حَتَّى تَهْدَأَ الْعُيُونُ، وَتَلْتَدَّ بِالْغَمْضِ أَجْفَانُهَا، ثُمَّ يَقُومُ يَتَوَضَّأُ خَالِيًا بِرَبِّهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ، وَمَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنْ حَالٍ، فَإِنَّهُ يَقُولُ لَمَّا أَصْبَحَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تُجِيرَنِي مِنَ النَّارِ، وَمِثْلِي يَصْغُرُ أَنْ يَجْتَرِيَ أَنْ يَسْأَلَكَ الْجَنَّةَ!!».

وَأَنْتَ خَيْرٌ أَنْ اللَّهُ إِنْ أَعَادَهُ مِنَ النَّارِ، وَأَجَارَهُ مِنَ النَّارِ، أَدْخَلَهُ الْجَنَّةَ وَنِعَمَ الْقَرَارِ، وَلَكِنَّهُ يَعْرِفُ نَفْسَهُ، وَقَدَّرَ رَبُّهُ، فَيَتَأَدَّبُ فِي الْخِطَابِ، فَهَذَا أَدَبٌ فِي الْخِطَابِ بِغَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانٍ.

قَالَ يُونُسُ بْنُ عَبِيدٍ: «إِنِّي لَأَعُدُّ مِئَةَ خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ - أَيْ أَعْرِفُهَا - مَا أَعْلَمُ عَنْهَا فِي نَفْسِي مِنْهَا وَاحِدَةً»^(١).

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: «لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ، مَا قَدَرَ أَحَدٌ، أَنْ يَجْلِسَ إِلَيْ»^(٢).

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو الْقَاسِمِ الْبَغَوِيُّ فِي «حَدِيثِ عَلِيِّ بْنِ الْجَعْدِ الْجَوْهَرِيِّ» (رَقْم ١٣٣٥)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٤)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٣/ ١٨)، تَرْجَمَهُ يُونُسُ بْنُ عَبِيدٍ: (٢٠٢)، وَالْمِزِيُّ فِي «تَهْذِيبِ الْكَمَالِ» (٣٢/ ٥٢٤)، تَرْجَمَهُ (٧١٨٠)، مِنْ طَرِيقِ: سَعِيدِ بْنِ عَامِرٍ، قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ يُونُسَ بْنَ عَبِيدٍ، قَالَ: «إِنِّي لَأَعُدُّ مِئَةَ خَصْلَةٍ...» فَذَكَرَهُ.

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣٧)، وَالدِّينُورِيُّ فِي «الْمَحَالِسَةِ» (١/ ١٥٧)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (٢/ ٣٤٩)، تَرْجَمَهُ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ: (١٩٩)، وَابْنُ

إِي وَاللَّهِ، لَوْ كَانَ لِلذُّنُوبِ رِيحٌ، مَا قَدَرَ أَحَدٌ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيَّ، وَلَكِنَّهُ السَّتْرُ،
اللَّهُمَّ أَدِّمْ عَلَيْنَا سِتْرَكَ وَعَافِيَتَكَ.

قَالَ أَبُو حَفْصٍ^(١): «مَنْ لَمْ يَتَّهَمْ نَفْسَهُ عَلَى دَوَامِ الْأَوْقَاتِ، وَلَمْ يُخَالَفْهَا فِي
جَمِيعِ الْأَحْوَالِ، وَلَمْ يَجْرِّهَا إِلَى مَكْرُوهِهَا فِي سَائِرِ أَوْقَاتِهِ؛ كَانَ مَغْرُورًا، وَمَنْ
نَظَرَ إِلَيْهَا بِاسْتِحْسَانِ شَيْءٍ مِنْهَا فَقَدْ أَهْلَكَهَا»^(٢).

فَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الْمَهَالِكِ، مُعِينَةٌ لِلْأَعْدَاءِ، طَامِحَةٌ إِلَى كُلِّ قَبِيحٍ، مُتَّبِعَةٌ
لِكُلِّ سُوءٍ، فَهِيَ تَجْرِي بِطَبْعِهَا فِي مَيْدَانِ الْمُخَالَفَةِ.

وَأَعْرَفُ النَّاسِ بِهَا أَشَدَّهُمْ إِزْرَاءً عَلَيْهَا وَمَقْتًا لَهَا.

وَمَقْتُ النَّفْسِ فِي ذَاتِ اللَّهِ مِنْ صِفَاتِ الصَّادِقِينَ، وَيَدْنُو الْعَبْدُ بِهِ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى فِي لَحْظَةٍ وَاحِدَةٍ أَضْعَافَ أَضْعَافِ مَا يَدْنُو بِالْعَمَلِ.

عساكر في «تاريخ دمشق» (٦١ / ١٥٨، ترجمة ٧٠٨٠)، وابن الجوزي في «المنتظم»
(٧ / ٢٠٤ - ٢٠٥، ترجمة ٦٥٢)، بإسناد صحيح.

(١) أَبُو حَفْصٍ، هُوَ: عَمْرُو بْنُ سَلْمِ النَّيْسَابُورِيِّ الصُّوفِيِّ الْحَدَادِ، أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ طَرِيقَةَ
التَّصَوُّفِ بِنَيْسَابُورٍ، تُوِّفِيَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، انظر ترجمته: «تاريخ بغداد»
للخطيب (١٤ / ترجمة ٦٦٢٤)، و«المنتظم» لابن الجوزي (١٢ / ترجمة ١٧١٧)،
و«سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٢ / ترجمة ١٩٠).

(٢) «الرسالة القشيرية» (١ / ٢٨٣ - ٢٨٤).

مَنْ لِي بِمِثْلِ سَيْرِكَ الْمُدَلَّلِ تَمْشِي الْهُوَيْنَا وَتَجِي فِي الْأَوَّلِ (١)

عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ، قَالَ: «إِنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، كَانُوا فِي مَسْجِدٍ لَهُمْ فِي يَوْمِ عِيدٍ، فَجَاءَ شَابٌّ حَتَّى قَامَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ: لَيْسَ مِثْلِي يَدْخُلُ مَعَكُمْ، أَنَا صَاحِبُ الذُّنُوبِ، أَنَا صَاحِبُ الْأَثَامِ، يُزِرِّي عَلَى نَفْسِي، فَأَوْحَى اللَّهُ ﷻ إِلَيَّ نَبِيَّهُمْ إِنَّ فَلَانًا صِدِّيقٌ» (٢) (٣).

وَأَمَّا مَنْ شَمَخَ بِأَنْفِهِ، وَذَاقَ طَعْمَ نَفْسِهِ، وَمَشَى فِي الْأَرْضِ تَكَبُّرًا وَتَجَبُّرًا، فَيُوشِكُ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِهِ، وَهَذَا مِنْ أَمْقَتِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّ الْعِزَّ لِلَّهِ، وَالْعِظْمَةَ لِلَّهِ، وَالْكَبْرِيَاءَ لِلَّهِ، وَالْكَبْرَ لِلَّهِ وَحْدَهُ،

(١) البيت لشيخ الإسلام ابن تيمية، أَخْرَجَهُ ابن ناصر الدين الدمشقي في «الرد الوافر» (ص ٨٥، ترجمة ابن القلانسي: ٤٢)، وابن تغري في «المنهل الصافي» (١ / ٥٢ - ٥٣)، قال الشيخ أبو الحسن علي بن محمد بن سليمان اليونيني في مشيخته، قال: شيخنا مجد الدين، -يعني: ابن القلانسي-، سمعت شيخ الإمام تقي الدين ابن تيمية يقول: «من لي بمثل سيرك المدلل... تمشي رويدا وتجيء في الأول»، وقد ذكره تلميذه ابن القيم في «مَدَارِجُ السَّالِكِينَ» (٣ / ٩ و ١٣٨)، وفي غيره بدون عزوه.

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْم ٥١٢)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «مُحَاسَبَةِ النَّفْسِ» (رَقْم ٣١)، وَابْنُ الْمُقْرِيِّ فِي «معجمه» (رَقْم ٢٧٢)، بِإِسْنَادِ حَسَنٍ، مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ، قَالَ: «إِنَّ قَوْمًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ...» فَذَكَرَهُ، وَرَوَى مُسْنَدًا إِلَى كَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَالْخَبْرُ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ.

(٣) «إِغَاثَةُ اللَّهْفَانِ» (١ / ١٤٣ - ١٤٩).

فَكُلُّ ذَلِكَ خَاصٌّ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ، وَمَنْ نَازَعَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ فِي شَيْءٍ مِنْهُ، قَصَمَهُ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَلَا يُبَالِي. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَأَنْتَبَهُ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-

تَبَيَّنْ وَأَنْتَبِهْ!!

«تَبَيَّنْ!! فَإِنَّ الْيَقْظَةَ هِيَ أَوَّلُ مَفَاتِيحِ الْخَيْرِ، فَإِنَّ الْغَافِلَ عَنِ الْإِسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ رَبِّهِ وَالتَّزَوُّدِ لِمَعَادِهِ؛ بِمَنْزِلَةِ النَّائِمِ، بَلْ أَسْوَأُ حَالًا مِنْهُ، فَإِنَّ الْغَافِلَ يَعْلَمُ وَعَدَّ اللَّهُ وَوَعِيدَهُ، وَمَا يَتَقَاضَاهُ أَوْامِرُ الرَّبِّ تَعَالَى وَنَوَاهِيهِ وَأَحْكَامُهُ مِنَ الْحُقُوقِ، لَكِنْ يَحْجُبُهُ عَنِ حَقِيقَةِ الْإِدْرَاكِ، وَيُقْعِدُهُ عَنِ الْإِسْتِدْرَاكِ؛ سِنَّةُ الْقَلْبِ، وَهِيَ غَفْلَتُهُ، الَّتِي رَقَدَ فِيهَا فَطَالَ رُقُودُهُ، وَرَكَدَ وَأَخْلَدَ إِلَى نَوَازِعِ الشَّهَوَاتِ، فَاشْتَدَّ إِخْلَادُهُ، وَانْغَمَسَ فِي غِمَارِ الشَّهَوَاتِ، وَاسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ الْعَادَاتُ وَمُخَالَطَةُ أَهْلِ الْبَطَالَاتِ، وَرَضِيَ بِالتَّشْبُهَةِ بِأَهْلِ إِضَاعَةِ الْأَوْقَاتِ، فَهُوَ فِي رُقَادِهِ مَعَ النَّائِمِينَ، وَفِي سَكْرَتِهِ مَعَ الْمَخْمُورِينَ.

فَمَتَى انْكَشَفَ عَنْ قَلْبِهِ سِنَّةُ هَذِهِ الْغَفْلَةِ بِزَجْرَةٍ مِنْ زَوَاجِرِ الْحَقِّ فِي قَلْبِهِ، اسْتَجَابَ فِيهَا لِوَاعِظِ اللَّهِ فِي قَلْبِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، أَوْ هِمَّةٍ عَلَيْهِ أَثَارَهَا مِعْوَلُ الْفِكْرِ فِي الْمَحَلِّ الْقَابِلِ، فَضْرَبَ بِمِعْوَلِ فِكْرِهِ، وَكَبَّرَ تَكْبِيرَةً أَضَاءَتْ لَهُ مِنْهَا قُصُورَ الْجَنَّةِ فَقَالَ:

أَلَا يَا نَفْسُ وَيَحَاكَ سَاعِدِي نِي بِسَعْيِي مِنْكَ فِي ظُلْمِ اللَّيَالِي

لَعَلَّكَ فِي الْقِيَامَةِ أَنْ تَفُوزِي بِطِيبِ الْعَيْشِ فِي تِلْكَ الْعَالِي (١)

فَأَنَارَتْ تِلْكَ الْفِكْرَةَ نُورًا، رَأَى فِي ضَوْئِهِ مَا خُلِقَ لَهُ، وَمَا سَيَلَقَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ
مِنْ حِينِ الْمَوْتِ إِلَى دُخُولِ دَارِ الْقَرَارِ، وَرَأَى سُرْعَةَ انْقِضَاءِ الدُّنْيَا، وَعَدَمَ وَفَائِهَا
لِبَنِيهَا، وَقَتْلَهَا لِعُشَّاقِهَا، وَفَعَلَهَا بِهِمْ أَنْوَاعَ الْمَثَلَاتِ.

فَنَهَضَ فِي ذَلِكَ الضُّوءِ عَلَى سَاقِ عَزْمِهِ، قَائِلًا: ﴿بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي
جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، فَاسْتَقْبَلَ بَقِيَّةَ عُمرِهِ الَّتِي لَا قِيَمَةَ لَهَا، مُسْتَدْرِكًا بِهَا مَا
فَاتَ، مُحْيِيًا بِهَا مَا أَمَاتَ، مُسْتَقْبِلًا بِهَا مَا تَقَدَّمَ لَهُ مِنَ الْعَثَرَاتِ، مُنْتَهِزًا فُرْصَةَ
الْإِمْكَانِ الَّتِي إِنْ فَاتَتْ، فَاتَهُ جَمِيعُ الْخَيْرَاتِ.

ثُمَّ يَلْحِظُ فِي نُورِ تِلْكَ الْيَقِظَةِ وَفُودَ نِعْمَةِ رَبِّهِ عَلَيْهِ، مِنْ حِينِ اسْتَقَرَّ فِي
الرَّحِمِ إِلَى وَقْتِهِ، وَهُوَ يَتَقَلَّبُ فِيهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، لَيْلًا وَنَهَارًا، يَقِظَةً وَمَنَامًا، سِرًّا
وَعَلَانِيَةً.

فَلَوْ اجْتَهَدَ فِي إِحْصَاءِ أَنْوَاعِهَا لَمَا قَدَرَ، وَيَكْفِي أَنْ أَدْنَاهَا نِعْمَةُ النَّفْسِ، وَاللَّهُ
عَلَيْهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ، أَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ نِعْمَةٍ، بِأَرْبَعَةِ وَعِشْرِينَ أَلْفَ نَفْسٍ، وَكُلُّ
نَفْسٍ نِعْمَةٌ مُسْتَقَلَّةٌ، لَا يَعْلَمُ حَقَّهَا وَقَدْرَهَا إِلَّا الْمَصْدُورُ الَّذِي يُفَاتِلُ مِنْ أَجْلِ
الْهُوَاءِ، فَمَا ظُنُّكَ بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي لَا تُحْصَى وَلَا تُعَدُّ.

(١) البیتان لعابد من بني سعد كما في «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٢/ ٢٦٧)، ترجمة

ثُمَّ يَرَى فِي ضَوْءِ ذَلِكَ النُّورِ، أَنَّهُ آيِسٌ مِنْ حَضْرَتِهَا وَإِحْصَائِهَا، عَاجِزٌ
عَنْ أَدَاءِ حَقِّهَا، وَأَنَّ الْمُنْعَمَ بِهَا، إِنْ طَالَ بِهِ بِحُقُوقِهَا، اسْتَوْعَبَتْ جَمِيعَ أَعْمَالِهِ
حَقُّ نِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْهَا.

فَيَتَيَقَّنُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ لَا مَطْمَعَ لَهُ فِي النَّجَاةِ إِلَّا بِعَفْوِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ، ثُمَّ
يَرَى فِي ضَوْءِ تِلْكَ الْيَقِظَةِ أَنَّهُ لَوْ عَمِلَ أَعْمَالَ الثَّقَلَيْنِ مِنَ الْبِرِّ؛ لَأَحْتَقَرَهَا بِالنِّسْبَةِ
إِلَى جَنْبِ عَظَمَةِ الرَّبِّ جَلَّ وَعَلَا.

مَا يَبْلُغُ عَمَلُكَ، وَمَا يَكُونُ؟! !!

فَأَيْدَتُهُ رَاجِعَةٌ إِلَيْكَ، وَعَائِدَتُهُ مَرْدُودَةٌ عَلَيْكَ، وَاللَّهُ غَنِيٌّ عَنْكَ وَعَنْهُ وَعَنِ
الْعَالَمِينَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا؛ لَا يُمَكِّنُ لِعَبْدٍ أَنْ يَعْلَمَ مَا يَسْتَحِقُّهُ لَجَلَالِ وَجْهِهِ
وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ، هَذَا لَوْ كَانَتْ أَعْمَالُكَ مِنْكَ، فَكَيْفَ وَهِيَ مَجْرَدُ فَضْلِ اللَّهِ وَمِنْتَهُ
وَإِحْسَانِهِ، حَيْثُ يَسَّرَهَا لَكَ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهَا، وَهَيَّأَهَا لَكَ، وَشَاءَهَا مِنْكَ.

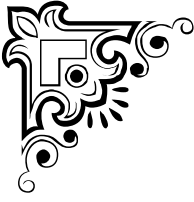
وَلَوْ لَمْ يَفْعَلْ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ لَهُ سَبِيلٌ إِلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، لَوْلَا
ذَلِكَ مَا كَانَ لِلْعَبْدِ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى تَحْصِيلِ شَيْءٍ، فَحِينَئِذٍ لَا يَرَى الْعَبْدُ أَعْمَالَهُ
مِنْهُ، بَلْ يَرَى رَبَّهُ سُبْحَانَهُ مُتَفَضِّلاً عَلَيْهِ، مُمْتَنِّئاً بِالْإِحْسَانِ مِنْهُ، وَأَنَّ هَذَا
الْإِحْسَانَ مِنَ اللَّهِ، لَا مِنَ النَّفْسِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ مِنْ نَفْسِهِ إِلَّا الشَّرُّ
وَأَسْبَابُهُ، وَمَا بِهِ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ، صَدَقَةٌ تَصَدَّقُ بِهَا عَلَيْهِ وَفَضْلاً مِنْهُ
سَاقَهُ إِلَيْهِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَحِقُّهُ بِسَبَبٍ، وَيَسْتَأْهِلَهُ بِوَسِيلَةٍ، فَيَرَى رَبَّهُ وَوَلِيَّهُ
وَمَعْبُودَهُ أَهْلاً لِكُلِّ خَيْرٍ، وَيَرَى نَفْسَهُ أَهْلاً لِكُلِّ شَرٍّ، وَهَذَا أَسَاسُ جَمِيعِ

الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَهُوَ الَّذِي يَرْفَعُهَا وَيَجْعَلُهَا فِي دِيْوَانِ
أَصْحَابِ الْيَمِينِ»^(١). (*)

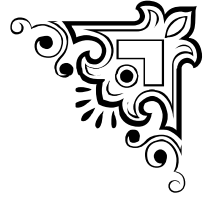


(١) «كتاب الروح» لابن القيم، الطبعة الأولى (١٤٣٢هـ)، دار عالم الفوائد: مكة - (ص
٦٣١ - ٦٣٤).

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيْقِظُ وَانْتَبِهَ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-



مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ وَتَغْيِيرُهَا
بِدَايَةِ طَرِيقِ إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ



عِبَادَ اللَّهِ! مَا أَعْظَمَ الْغَفْلَةَ!! وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَعْلَمَهَا، فَرَاقِبْ نَفْسَكَ فِي خَرِيطَةِ
يَوْمِكَ، وَتَأَمَّلْ مُحْصِيًّا عَلَى ذَاتِكَ غَيْبَتِكَ، وَكَذِبِكَ.

لَقَدْ عَمَّتِ الْفَوْضَى السَّاحَةَ، وَمَا هَكَذَا يَكُونُ جِيلُ النَّصْرِ الْمَنْشُودِ، الَّذِي
يَمْتَلِكُ زِمَامَ مَقَالِيدِ الْعَالَمِ، إِنَّ الْعَالَمَ لَا يَمْتَلِكُ زِمَامُهُ بِيَدِ الثُّلَّةِ الصَّالِحَةِ بِالْكَلامِ،
وَلَا بِالتَّنْظِيرِ، وَإِنَّمَا بِالنُّفُوسِ الصَّالِحَةِ، وَالْأَنْفُسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، وَالْقُلُوبِ الزَّكِيَّةِ،
وَالْأَرْوَاحِ الْمُطْمَئِنَّةِ.

وَهَذَا هُوَ الْجِيلُ الَّذِي نَشَأَهُ الرَّسُولُ ﷺ وَرَبَّاهُ، فَمَلَكَ الْعَالَمَ كُلَّهُ، وَدَانَ
الْعَالَمَ كُلَّهُ لـ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ عَنْ وَصْفِ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ: «مَنْ
كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»^(١).

مَا الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ؟

«تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَشْرَ آيَاتٍ، عَشْرَ آيَاتٍ، لَا يُجَاوِزُونَهَا، حَتَّى يَفْقَهُوهِنَّ،
وَيَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَتَعَلَّمُوا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ جَمِيعًا»^(٢).

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

(٢) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

هَلْ كَانَ أَصْحَابُهُ يُفَاوِثُونَ بَيْنَ الْقَوَتَيْنِ؛ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ؟

هَلْ حَرَّصُوا عَلَى الْكَمِّ يَوْمًا دُونَ الْكَيْفِ؟

مَا التَّفَتُّوا إِلَيْهِ.

﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]،
وَكَانُوا فِي بَدْرِ ثَلَاثَةَ صَالِحَةٍ مُؤْمِنَةٍ مُوحَّدَةٍ، وَكَانُوا فِي حُنَيْنٍ كَثْرَةً كَثِيرَةً، وَتَفَاوَتْ
مَا بَيْنَ النَّتِيجَتَيْنِ بَدَأًا وَمُنْتَهَى، فَتَأَمَّلْ ...

فَإِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا يَصْلُحُ آخِرُهَا إِلَّا بِمَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَوْلَاهَا، بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ،
بِالْعِلْمِ النَّافِعِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

يَا طُلَّابَ الْعِلْمِ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَمِنْهَاجِ السَّلَفِ، يَقُولُ نَبِيُّكُمْ ﷺ فِي بَيَانِ
مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ﷺ: «مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»^(١).

(١) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي «الْجَامِعِ» (رَقْم ٢٦٤١)، مِنْ حَدِيثِ: عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لِيَأْتِيَنَّ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَذْوُ النَّعْلِ
بِالنَّعْلِ، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عِلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنَّ
بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفَتَّرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ
مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً».

قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي».

وَالْحَدِيثُ حَسَنٌ إِسْنَادُهُ لغيره الألبانِي فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (رَقْم ٥٣٤٣)، وَفِي هَامِشِ
«صَلَاةِ الْعِيدَيْنِ» (ص ٤٦، التعلیق ١)، وَاظْطَرُ: «السَّلْسَلَةُ الصَّحِيحَةُ» (٣/ ٣٣٥، رَقْم

وَهَذَا أَصْلٌ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ: «أَخْبِرْنَا الَّذِينَ كَانُوا يُقْرَأُونَ الْقُرْآنَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، أَنَّهُمْ تَعَلَّمُوا الْقُرْآنَ عَشْرَ آيَاتٍ، لَا يُجَاوِزُونَهَا، حَتَّى يَفْقَهُوهَا، وَيَعْمَلُوا بِهَا» (١).

إِنَّمَا تَتَعَلَّمُ لِتَعْمَلَ، أَمَّا هَذَا الْهَرَجُ الْهَارِجُ، وَهَذَا الْعَبَثُ الْعَابِثُ، فَلَا يَزِيدُكَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا.

تَيَقِّظُ، وَتُبُّ، وَأَنْبُ، وَاسْتَغْفِرُ، وَعُدُّ، وَأَقْرِنُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، وَدَعُكَ مِنْ بَهَارِجِ الزُّيْنَةِ.

* حَاسِبْ نَفْسَكَ! هَلْ خَلَا مَجْلِسُ لَكَ مِنْ غَيْبَةٍ؟!!

يَا أَخِي! إِنَّ الْأَفَاتِ قَدْ عَمَّتْ فَطَمَّتْ، وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَى الْقُلُوبِ، وَإِنِّي سَأَلْتُكَ عَنْ أَمْرٍ؛ وَأَجِبْ أَنْتَ عَنْهُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ:

هَلْ خَلَا مَجْلِسُ لَكَ مِنْ غَيْبَةٍ؟!

بِاللَّهِ عَلَيْكَ أَجِبْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ رَبِّكَ؛ هَلْ خَلَا مَجْلِسُ لَكَ مِنْ غَيْبَةٍ؟!!

وَالْغَيْبَةُ مِنْ كِبَائِرِ الْإِثْمِ وَعِظَائِمِ الذُّنُوبِ، وَهِيَ مِنْ حُقُوقِ الْعِبَادِ، بِمَعْنَى: أَنَّهُ مَهْمَا اسْتَغْفَرَ الْعَبْدُ وَتَابَ وَأَنَابَ؛ فَحَقُّ الْعَبْدِ لَا بُدَّ مِنْ تَوْفِيئِهِ مِنْ قِبَلِ الرَّبِّ يَوْمَ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ.

فَهَلْ خَلَا مَجْلِسُ لَكَ - أَنْتَ... أَنْتَ - مِنْ غَيْبَةٍ؟!!

(١) تَقَدَّمَ تَخْرِيجُهُ.

مَنْ أَنْتَ؟!!!

مَا تَكُونُ؟!!!

أَلَا تُفِيقُ؟!!!

أَلَا تَتَّقِظُ؟!!!

أَلَا تَسْتَحِي؟!!!

اتَّقِ اللَّهَ رَبَّكَ. (*)

*** أَمْرَاضُ الْأُمَّةِ وَعَجْزُهَا وَذُلُّهَا بِسَبَبِ ذُنُوبِ أبنَائِهَا!!**

عَلَيْنَا أَنْ نَدُلَّ الْأُمَّةَ عَلَى أَنْ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ بِسَبَبِ ذُنُوبِ أَفْرَادِهَا،
وَلَا مَخْلَصَ لَهُمْ مِمَّا تَوَرَّطُوا فِيهِ إِلَّا بِإِحْدَاثِ التَّوْبَةِ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَإِنَّ
اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا قَدْ عَاقَبَ مَنْ كَانَ مَعَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ لَمَّا خَالَفُوا أَمْرًا وَاحِدًا مِنْ
أَوْامِرِ النَّبِيِّ ﷺ وَالرَّسُولِ ﷺ.

أَمْرُهُمْ بِأَنْ يَلْزَمُوا الْجَبَلَ، وَأَلَّا يَنْزِلُوا عَنْهُ وَإِنْ رَأَوْا الْمُشْرِكِينَ يَرْكَبُونَ أَكْتِافَ
الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا دَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، وَبَدَأَ مَنْ فِي السَّاحَةِ يَجْمَعُ
الْغَنَائِمَ، وَتَوَلَّى الْمُشْرِكُونَ مُدْبِرِينَ، نَزَلَ مَنْ نَزَلَ عَنِ الْجَبَلِ مِنَ الرُّمَاءِ، فَكَانَتْ
الْكَسْرَةُ.

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَيَقَّظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-

وَبَيَّنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ أَنَّ ذَلِكَ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ، وَالنَّبِيُّ بَيْنَهُمْ وَاللَّهُ، بَلْ أَصَابَهُ وَاللَّهُ مَا أَصَابَهُ لَمَّا وَقَعَ فَجَحِشَ جَنْبُهُ - أَيِ جُرْحٍ -، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَدَخَلَتْ حَلَقَةٌ مِنْ حَلَقَاتِ الْمَغْفِرِ فِي وَجْتِهِ وَاللَّهُ، وَتَصَايَحَ الْكُفَّارُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ وَاللَّهُ، وَقَتِلَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ وَاللَّهُ شَهِيدًا حَمِيدًا سَبْعُونَ مِنَ الصَّحَابَةِ - رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ -.

كُلُّ ذَلِكَ لِلْمُخَالَفَةِ فِي أَمْرٍ وَاحِدٍ، أَفْتَحَسَبُ الْأُمَّةُ أَنَّ أَفْرَادَهَا أَكْرَمُ عَلَى اللَّهِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ؟!؟!

فَتَعَصِي الْأُمَّةُ أَمْرَهُ وَتَسْتَنْزِلُ خَيْرَهُ، وَتَطْلُبُ تَأْيِيدَهُ وَنَصْرَهُ بِالْمَعَاصِي وَالذُّنُوبِ، بِالْخُرُوجِ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ وَمَنْهَجِ السَّلَفِ، وَالْإِبْتِدَاعِ وَالْإِحْدَاثِ فِي دِينِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ؛ بِتَحْزِيبِ الْأُمَّةِ أَحْزَابًا كَفَعَلَ السَّابِقِينَ مِنَ الْهَالِكِينَ، بِجَعْلِ الْبَأْسِ بَيْنَهُمْ أَحْزَابًا مُتَنَافِرَةً وَجَمَاعَاتٍ مُتَنَاحِرَةً، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مَعْلُومٌ؟!؟!

وَكُلُّهَا مُخَالَفَاتٌ مِنْ أَعْظَمِ مَا تَكُونُ الْمُخَالَفَاتُ، وَأَيُّنَ هِيَ مِنْ تَرْكِ الرُّمَّةِ الْجَبَلِ؛ مُخَالَفَةً لِأَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَاللَّهُ؟!؟!

فَعَلَيْنَا أَنْ نَبْدَأَ مِنْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ نَبْدَأَ، عَلَيْنَا أَنْ نَتُوبَ إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا، لَقَدْ اسْتَمْرَأْنَا الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِي! أَلْفَنَاهَا حَتَّى اسْتَمْرَأْنَاهَا وَاسْتَحْلَيْنَاهَا!! فَاثْمَرْنَا الْأَمْرَ عَلَيْنَا؛ لِأَنَّ «الْعَبْدَ إِذَا ارْتَكَبَ الْمَعْصِيَةَ وَالذَّنْبَ؛ نُكِتَ فِي قَلْبِهِ

نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ الْقَلْبُ أَسْوَدَ مُرْبَادًا كَالْكُوزِ مُجْحِيًّا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا
وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ» (١).

قُلُوبٌ قَاسِيَةٌ، وَأَرْوَاحٌ جَاسِيَةٌ، وَأَبْدَانٌ عَنِ الطَّاعَةِ نَافِرَةٌ، وَنُفُوسٌ فِي أَوْدِيَةِ
الضَّلَالِ حَائِرَةٌ، إِلَى مَتَى؟

عَلَيْنَا أَنْ نُتُوبَ، إِنْ تَبْنَا وَصَدَقْنَا مَعَ اللَّهِ فِي تَوْبَتِنَا؛ رَفَعَ اللَّهُ كُرْبَتَنَا، وَأَحْسَنَ
إِلَيْنَا، وَتَقَبَّلَ تَوْبَتَنَا وَأَوْبَتَنَا. (*).

قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ أُخْرَى مُنَاقِضَةً لِلأُولَى حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ، فَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى حَسَنٍ؛ غَيَّرَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ مِنْ
سَيِّئٍ إِلَى حَسَنٍ، وَإِنْ غَيَّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ حَسَنٍ إِلَى فَيِّحٍ؛ غَيَّرَ اللَّهُ أَحْوَالَهُمْ،
وَأَحَلَّ بِهِمْ نِقْمَتَهُ. (* / ٢).

وَمِفْتَاحُ التَّغْيِيرِ - عِبَادَ اللَّهِ - هُوَ مَعْرِفَةُ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ، مَعْرِفَةُ التَّوْحِيدِ
الَّذِي جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، كُلُّ عِلْمٍ يَشْرَفُ بِشَرَفِ مَعْلُومِهِ، وَهَذَا الْعِلْمُ

(١) جزء من حَدِيثِ الْفَتَنِ الَّتِي تَمُوجُ مَوْجُ الْبَحْرِ، الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْم
١٤٤)، مِنْ رِوَايَةِ: حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ خُطْبَةٍ: «سَبَبُ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ» - الْجُمُعَةُ ١٤ مِنْ جُمَادَى
الأُولَى ١٤٣٣ هـ / ٦-٤-٢٠١٢ م.

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ سِلْسِلَةٍ: «الْفِرَاءَةُ وَالتَّعْلِيْقُ عَلَى مُخْتَصَرِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ» -
[سورة الرعد: ١١].

أَشْرَفُ الْعُلُومِ، عِلْمُ التَّوْحِيدِ، عِلْمُ الْعَقِيدَةِ، هَذَا الْعِلْمُ هُوَ أَشْرَفُ الْعُلُومِ؛ لِأَنَّ مَعْلُومَهُ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَاتِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَبِصِفَاتِهِ جَلَّ وَعَلَا، وَبِأَفْعَالِهِ سُبْحَانَهُ، وَمَا يَتَوَجَّبُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَمَا يَنْبَغِي أَنْ يُوصَفَ بِهِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الْمَعَائِبِ وَالنَّقَائِصِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْعِلْمِ الشَّرِيفِ. (*)

فَالْفَرْدُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِصَلَاحِ عَقِيدَتِهِ وَقَلْبِهِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ» (١).

وَالْمُجْتَمَعُ لَا يَصْلُحُ إِلَّا بِصَلَاحِ أَفْرَادِهِ، فَإِذَا صَلَحَ الْفَرْدُ؛ صَلَحَ الْمَجْمُوعُ. (* / ٢).

عِبَادَ اللَّهِ! إِنَّ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ يُرِيدُ مِنَّا أَنْ نَتَّعِيزَ، أَنْ نَتَّحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ الْعَادَاتِ وَمِنْ قَيْدِ التَّقَالِيدِ الَّتِي قَدْ أَوْثَقَتْ أَرْجُلَنَا فِي الْأَرْضِ بِسَلْسِلِ تَمِيدٍ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ مُحَاضَرَةٍ: «مِفْتَاحُ التَّغْيِيرِ» - الْإِثْنَيْنِ ٨ مِنْ رَمَضَانَ ١٤٣٢ هـ / ٨ - ٨ - ٢٠١١ م.

(١) جزء من حديث: النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ رضي الله عنه، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، ...»، الْحَدِيثُ، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْمٌ ٥٢ وَ ٢٠٥١)، وَمُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» (رَقْمٌ ١٥٩٩).

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مُخْتَصَرٌ مِنْ تَفْرِيعٍ لِمَقْطَعٍ: «إِصْلَاحُ الْفَرْدِ يَصْلُحُ بِهِ الْمَجْمُوعُ».

الْأَرْضَ وَلَا تَمِيدُ، يُرِيدُ مِنَّا رَبُّنَا أَنْ نَتَّغَيَّرَ، وَأَنْ نَتَّحَرَّرَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَى، وَأَنْ نَخْرُجَ مِنْ قَبْضَةِ الْعَادَاتِ إِلَى مَرْضَاةِ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ عَلَى مُقْتَضَى سُنَّةِ سَيِّدِ الْكَائِنَاتِ ﷺ. (*)

وَلَنْ تَفْلِحَ الْأُمَّةُ وَلَنْ تَصِلَ إِلَى غَرَضِهَا، وَلَنْ تَحْصَلَ مَقْصُودَهَا إِلَّا بِالْعُودَةِ إِلَى كِتَابِ رَبِّهَا وَسُنَّةِ نَبِيِّهَا ﷺ بِفَهْمِ سَلَفِهَا الصَّالِحِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَرَضَائِهِ وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى أَجْمَعِينَ -.

فَهَذِهِ سَبِيلُ النَّجَاةِ، لَا سَبِيلَ لِلنَّجَاةِ سِوَاهَا، وَأَمَّا التَّخَبُّطُ، وَأَمَّا هَذَا الْهَرْجُ الَّذِي تُعَانِي مِنْهُ الْأُمَّةُ؛ فَهَذَا هُوَ الْمَضِيقُ الَّذِي لَا مَخْرَجَ لَهُ، وَالْمَأْزِقُ الَّذِي لَا نَجَاةَ مِنْهُ إِلَّا بِأَنْ تَكُونَ الْأُمَّةُ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ بِلَا تَخَالُفٍ وَلَا تَدَابُرٍ، وَلَا شَحْنَاءَ وَلَا بَغْضَاءَ. (* / ٢).

قَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَقَدْ كُنْتُمْ أَذَلَّ الْأُمَّمِ - لَا هُنَا وَلَا هُنَاكَ، لَيْسُوا مَعْدُودِينَ فِي أُمَّمِ الْأَرْضِ، بَلْ لَيْسُوا مَعْدُودِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ، الرُّومُ، وَالْفُرْسُ، وَالْأَحْبَاشُ، وَالصَّقَالِبَةُ، وَالْقَبْطُ، وَالْأَرَمَنُ، وَالْبَرْبَرُ، وَأَجْنَاسُ الْأَرْضِ؛ كَانَتْ مَعْدُودَةً فِي الْأَنْبَاسِيِّ عَدَا، وَهَوْلَاءِ لَا ذِكْرَ لَهُمْ هُنَاكَ وَلَا هُنَا - فَاتَى اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ...».

(* / ٢) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَزَكِيَةُ النَّفْسِ وَتَحْرِيرُ الْقُدْسِ» - الْجُمُعَةُ ٢٦ مِنْ رَبِيعِ الْأَوَّلِ

بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَصِرْتُمْ بِطَاعَتِهِ أَعَزَّ النَّاسِ، فَمَهْمَا التَّمَسْتُمُ الْعِزَّ فِي غَيْرِ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ أَذَلَّكُمْ اللَّهُ» (١).

هِيَ ضَرْبَةٌ لِأَزْبٍ، وَهُوَ قَدْرٌ مَحْتُومٌ، مَنِ التَّمَسَّ الْعِزَّ فِي مَوَاطِنِ الذُّلِّ فَلَا بُدَّ أَنْ يُذَلَّ. (*)

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسِبُوا، وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ الْمُبَارَكِ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْم ٥٨٤)، وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ فِي «الْمُصَنَّفِ» (رَقْم ٣٣٨٤٧ و ٣٤٤٤٤)، وَهِنَادُ بْنُ السَّرِيِّ فِي «الزُّهْدِ» (٢ / ٤١٧، رَقْم ٨١٧)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي «الزُّهْدِ» (رَقْم ٦٦)، وَابْنُ أَبِي الدُّنْيَا فِي «الزُّهْدِ» (رَقْم ١١٧)، وَالْحَاكِمُ (١ / ٦٢، رَقْم ٢٠٨) (٣ / ٨٢، رَقْم ٤٤٨١)، وَأَبُو نَعِيمٍ فِي «الْحَلِيَّةِ» (١ / ٤٧، ترجمة عمر بن الخطاب: ٢)، وَالْبَيْهَقِيُّ فِي «شُعَبِ الْإِيمَانِ» (١٠ / رَقْم ٧٨٤٧)، بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: خَرَجَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الشَّامِ وَمَعَنَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ فَاتَوَا عَلِيَّ مَخَاضَةَ وَعُمَرُ عَلِيَّ نَاقَةَ لَهُ فَنَزَلَ عَنْهَا وَخَلَعَ خَفِيَّهُ فَوَضَعَهُمَا عَلَيَّ عَاتِقِهِ، وَأَخَذَ بِيَمَامِ نَاقَتِهِ فَخَاضَ بِهَا الْمَخَاضَةَ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْتَ تَفْعَلُ هَذَا، تَخْلَعُ خُفَيْكَ وَتَضَعُهُمَا عَلَيَّ عَاتِقِكَ، وَتَأْخُذُ بِيَمَامِ نَاقَتِكَ، وَتَخْوِضُ بِهَا الْمَخَاضَةَ؟ مَا يَسْرُنِي أَنْ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ.

فَقَالَ عُمَرُ: «أَوْهَ لَمْ يَقُلْ ذَا غَيْرِكَ أبا عُبَيْدَةَ جَعَلْتَهُ نِكَالًا لِأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ إِنْ كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ».

(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «شُرُوطُ النَّصْرِ وَالتَّمَكِينِ» - الْجُمُعَةُ ٦ مِنْ جُمَادَى الثَّانِي

تُوزَنُوا، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا؛ أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ، وَتَزَيَّنُوا
لِلْعَرَضِ الْأَكْبَرِ، يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ.

وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّىكُمْ وَيُرِعَاكُمْ، وَيَغْفِرُ لِي وَلَكُمْ مَا قَدَّمْنَا وَمَا أَخَّرْنَا، وَمَا
أَسْرَرْنَا وَمَا أَعْلَنَّا، وَمَا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنَّا، وَهُوَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، وَسِتِيرُ الْعُيُوبِ.

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَجْمَعِينَ. (*)



(*) مَا مَرَّ ذِكْرُهُ مِنْ خُطْبَةٍ: «تَقِظْ وَانْتَبِهْ» - الْجُمُعَةُ ١٩ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ١٤٣٣هـ / ٥-١٠-

٢٠١٢م، بِتَصَرُّفٍ يَسِيرٍ.

الفهرس

- ٣ مُقَدِّمَةٌ
- ٤ تَزْكِيَةُ النَّفْسِ سَبِيلُ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ
- ٥ * بَعْضُ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ
- ٦ * أَعْظَمُ طَرِيقٍ إِلَى تَزْكِيَةِ النَّفْسِ: تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ
- ٧ * مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ: مُحَاسَبَتُهَا
- ٩ وَقْفَةٌ مَعَ النَّفْسِ فِي غَمْرَةِ الْفِتَنِ الْحَالَّةِ
- ١١ سَعَادَةُ الْمُسْلِمِ فِي التَّوَازُنِ بَيْنَ قُوَّتَيْهِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ
- ١٣ مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ دَوَاءُ الْقَلْبِ الْمَرِيضِ وَالنَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ
- ١٨ مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ وَبَعْدَ الْعَمَلِ
- ١٨ * النَّوْعُ الْأَوَّلُ: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ قَبْلَ الْعَمَلِ
- ٢١ * النَّوْعُ الثَّانِي: مُحَاسَبَةُ النَّفْسِ بَعْدَ الْعَمَلِ
- ٢٢ * حَاسِبٌ نَفْسَكَ وَتَعَلَّمَ الْحِكْمَةَ مِنَ الضَّرِيرِ!!

- ٢٢ * أَضُرُّ شَيْءٌ عَلَى الْعَبْدِ تَرَكَ مُحَاسِبَةَ النَّفْسِ وَالِاسْتِهَانَةَ
- ٢٤ كَيْفَ نَحَاسِبُ أَنْفُسَنَا؟
- ٢٨ وَجُوبُ مُحَاسِبَةِ النَّفْسِ
- ٢٩ اخْذِرِ الْإِسْتِهَانَةَ؛ فَبِهَا الْهَلَاكُ!!
- ٣٢ ثَمَرَاتُ مُحَاسِبَةِ النَّفْسِ، وَصُورٌ مِنْ مُحَاسِبَةِ السَّلَفِ أَنْفُسَهُمْ
- ٤٠ تَيْقِظُ وَانْتَبِهْ!!
- ٤٤ مُحَاسِبَةُ النَّفْسِ وَتَغْيِيرُهَا بِدَايَةِ طَرِيقِ إِصْلَاحِ الْأُمَّةِ
- ٤٦ * حَاسِبِ نَفْسَكَ! هَلْ خَلَا مَجْلِسُ لَكَ مِنْ غِيْبَةٍ!!؟
- ٤٧ * أَمْرَاضُ الْأُمَّةِ وَعَجْزُهَا وَذُلُّهَا بِسَبَبِ ذُنُوبِ آبَائِهَا!!
- ٥٥ الْفِهْرُسُ

